د.سليمان جازع الشمري

رواية

مســــــيرة القــــدر

الإهداء

إلى أي يهودي يتألم من أجل ما حدث ويحدث للفلسطينيين من تشريد وقتل واعتقال. قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ سورة الأعراف آية 159. إلى كل شخص متيم بالبحث عن الحقيقة لا التزييف.

د. الشمري
2005م

تمهيد

أدرك شايل أن الأمور والمستجدات في الألفية الثالثة تجاوزت عصر الحداثة والصناعة، وأدخلت الإنسان في زمن القدر الجديد الذي تحولت فيه المعرفة من قوة يستفاد منها في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية إلى قوة المعرفة التي تحتكرها جماعة نهاية التاريخ والسير في الطريق العبثي متكئين على التطورات التقنية والمعلوماتية من خلال مؤسسات تعمل بحرفية تامة مهمشة الإبداعات الفردية للمفكرين والمبدعين. وعلى نطاق مقدرة شايل المحدودة يحاول أن يضع فتوحات في طريقة التفكير العربي بوضعه لهويته على مشرحة النقد والتحليل الذي لا يقوم على التصادم مع الآخرين بدأت حياة شايل بقدر ناقص المدة واستمرت هذه الحالة في أغلب مشاريعه المادية والفكرية، فحينما يريد قطاف مجهوداته تنتهي فترة قدره ويبحر في طريق آخر. كتب شايل رسالة تحت عنوان "وداعاً يا حبيبت ي" لزوجته سعاد التي استمرت معه أكثر من خمس سنوات قال فيها: "عزيزتي اكتب لك هذه الرسالة والقلب يتفطر ألماً، الجلسة معك حلوة جداً حيث عشقتك عشق العاشقين كقيس وعنترة، وعشق السجين لحريته، الحياة

معك رائعة والانفصال أيضا رائع. يتنازعني الفرح والغضب، وأنا أكتب هذه الرسالة الثقيلة جداً. لم أزل أتذكر مواقفك الرائعة من مقالاتي التي هي سبب ارتباطنا وحبنا الأبدي إلا أني أقدم على فعلتي هذه كرهاً لأي دور أكون فيه مستغلاً لأحد فكيف أفعل ذلك معك. مررت على ثلاثة مستشفيات كبيرة في العاصمة بغية أن حصل على أمل من أحد الأطباء، لكنهم أجمعوا على أني لن أكون أباً لأحد، والتقرير الطبي يشرح ذلك بالتفصيل. وقف زمن القدر بعد الزواج ولم يكمل جميله معي في أن أكون أبا كي أحملك في قطار الأسرة السعيدة إنما القدر أوصلني إليك ووقف. وأقول لك وبكل صدق أني لن أتزوج بعدك. أعجز عن وصف تعاملك الراقي والرائع مع أطفال أقاربك الذين تحضرينهم كل أسبوع إلى منزلنا وتحتضنينهم بصدرك الدافئ الذي تفوح منه رائحة الطيب والطيبة، حتى أنك عاملتيني كواحد منهم وكنت بحاجة إلى صدر يضمني. أعرف أنك تعارضين فكرة الانفصال حتى لو طال انتظارك وزاد احتراقي، إن الذين يحترقون من أجل إسعاد الآخرين هم بشر غير عاديين، وأحب أن أكون واحداً منهم. أنت طالق، طالق، طالق. إن الله لن يعاقبني على ذلك، قد يعاقبني لو استمررت معك، لقد تعلقت بحبل الأمل

طُولَ السنوات الماضية، والآن أريد إقفال هذا الموضوع ولن أتحدث لأحد، واتخذت هذا القرار دون استشارة أحد، ومن حقك أن تبوحي لأحد إن أردتِ فهذا قدرك لك حق أن تطرحيه أرضاً إن شئت أو ترفعيه عالياً ليعانق السماء، فالزعل لا ينفع، ولن يرجعني إلى حضنك". ظل شايل كالطير الذي يرفض أن يربط حتى لو كان طول حبله آلاف الأمتار وذلك خشية من الجهة التي أوثقت رباطه وهي وحدها الجهة التي تستطيع سحبه متى ما أرادت، وهذا يجسد حقيقة كرهه لوصاية الآخرين عليه أو أن يكون وصيا على الآخرين . يركز جل نشاطه على أن يكون الإنسان الوسيط الذي يعيش مع من حوله لا يعتبر نفسه أفضل منهم ولا أحقر منهم لا البطل القوي ولا بالقاصر المهزوم. يمقت الفكر الذي يأمر بإقصاء الآخرين وادعاء امتلاك الحقيقة. اختلف عدة مرات في قضايا يرى أنها جوهرية وتراها أخته الدكتورة روعه من صغائر الأمور فيغضب عليها قليلا ثم تعود الأمور إلى مجاريها أي أن فترة العتاب عنده قصيرة جداً، وفي ضوء ذلك كانت كُلَّمَا تتأزم علاقتها مع زوجها وديع وأيضا زوجها الثاني تطلب المشورة من أخيها شايل فتجده يحتضن قضاياها بكل رحابة صدر، ويحاول أن يجد المخارج لتأزمات علاقاتها

مع زوجيها. أبحرت عنقاء والدة شايل في سفينة الماضي، مجاديفها قصص مذود الذي يتنفس أكسجين القرية الصافي الذي شاركته إياه لفترة ليست بالقصيرة وسردت على شايل قصة ذهاب مذود للعراق للبحث عن والده, حيث شكل العراق حفرة في ذاكرة شايل من نصف جسد المرأة الذي أكله مذود، ومشكلة تعرض أرض العراق لجبابرة من يحكمونه بكل قسوة حتى احتلته الولايات المتحدة وازداد عدد الجبابرة وازدادت الفرقة بين العراقيين. إن الأطروحة الرئيسة في ذاكرة شايل هي كيفية زرع مفهوم الديموقراطية في الوطن العربي كثقافة في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . إنه لا يختزل الديموقراطية في صناديق الاقتراع إنما يعممها على جميع الأمور المحيطة بالإنسان العربي المقهور. إن الذي ينظر إلى أطروحات شايل يرى أن فيها قليلاً من الوهم، وقد يكون هذا المحرك الرئيس الذي خلق لديه جملة من الآمال والطموحات والأحلام التي أخذت من وقته وصحته الكثير.

كان لأفكار شايل جلي الأثر على أخته الدكتورة روعه بعد إجرائها لعملية الرنين المغناطيسي الذي أحدث تغيراً واضحاً في تصرفاتها وتعاملها مع أطروحات أخيها شايل .

(1)

المدينة الفاضلة

شد لقاء تلفازي مع الحاخام اليهودي ديفيد وايس الناطق الرسمي باسم حركة ناطوري كاراتا انتباه شايل. بدأت دموعه تتساقط من عين يم لتروي جزءاً من مساحة الحقيقة. فتصريح ديفيد الذي يركز على أنه هو وجماعته لم يعترفوا ولن يعترفوا بدولة إسرائيل لأنها دولة ضد الله، فالله كتب على اليهود أن يعيشوا بلا دولة عقابا لهم على خطاياهم، وأن على اليهود أن يعيشوا بسلام في البلاد الإسلامية على مر العصور ، وأن إسرائيل لاحق لها ولا ببوصة واحدة من فلسطين، وأن أرض فلسطين من حق الفلسطينيين بأكملها، و أن الفلسطينيين مظلومون ومضطهدون وإن ما تقوم به إسرائيل الصهيونية في فلسطين ضد الفلسطينيين جرائم كبرى. ومنذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية نظمت الحركة عدة مظاهرات وأصدرت بيانات تصف إسرائيل بالعنصرية والدموية.

جلس شايل ساعة كاملة بعد انتهاء اللقاء التلفازي وهو يكرر كلمة ديفيد "جرائم كبرى". كلام مدهش وجميل في نظر شايل الذي سجل البرنامج على شريط فديو عند إعادة القناة بثه للمرة الثانية.

دخلت والدة شايل السيدة عنقاء السعود غرفة ابنها فوجدته في حالة تركيز واهتمام لما يقوله الحاخام ديفيد. طلبت منه إيقاف الشريط لتقول له: إن هذا الرجل الذي يتحدث يشبه بدرجة كبيرة رجلاً يدعى مذود بطاح؛ عاش في قريتها قبل أن تنتقل إلى المدينة بصحبة ابنها شايل وابنتها روعه ليكملا دراستهما المتوسطة والثانوية. كان شايل ينظر باستغراب وهي مسترسلة بالحديث عن مذود وسألها هل يملك مذود ضفائر شبيهة بضفائر ديفيد؟ أجابت نعم، وقالت إنهما يشبهان بعضهما بدرجة كبيرة، إلا أن جدايل مذود أطول وأكثر كثافة من ضفائر ديفيد. أرادت عنقاء أن تتابع الحديث والوصف للسيد مذود الذي شاركته الطفولة والشباب. إنها تملك الكثير والكثير من المعلومات والقصص، تملك الساعات والدقائق التي قضتها في الجبال بصحبة مذود وصديقاتها. إلا أن ابنها شايل طلب منها تأجيل الحديث عن مذود حتى يكمل مشاهدته للمرة الثانية لحديث الحاخام ديفيد.

عموما بدأت صورة الحاخام اليهودي تدخل إلى أقصى أعماق شايل كما دخلت شخصية مذود إلى أعماق والدته عنقاء. شخصان في أعماق ابن وأمه. ابن أحب حاخاما يهوديا عندما سمعه يعترف بالأرض الفلسطينية وينظم المظاهرات من أجل الفلسطينيين، فقاد مظاهرة في نيويورك حضرها أكثر من عشرين ألف متظاهر من أتباعه ضد قصف الطائرات الإسرائيلية لمخيم جنين عام 2002م.

عكس شايل حقيقة مفادها أنه لا يملك أي عداء في داخله تجاه اليهود بوصفه شعباً يملك ديانة تختلف عن ديانته. إن اعتراف الحاخام اليهودي بحق الشعب الفلسطيني عظّم من منزلته ومكانته عند شايل ولم تكن ديانته عائقا لحبه له طالما أنه أدان المحرقة التي يتعرض لها الفلسطينيون. لم يرضع شايل مع حليب أمه كراهية اليهود بوصفهم أصحاب ديانة تختلف عن ديانتهم الإسلامية، إنما تزداد كراهيتهم عند قصف الإسرائيليين للفلسطينيين بالطائرات والصواريخ حديثة الصنع ذات المقدرة التدميرية العالية. فالكراهية مرتبطة بالاستيلاء على الأرض الفلسطينية حتى لو كان المحتل من جزر واق الواق.

بدأ شايل يبحث في شبكة الإنترنت عمّن يساند الفلسطينيين من اليهود أنفسهم، فوجد كتابات المفكر اليهودي نعوم تشومسكي ونقده المتواصل لسياسات الولايات المتحدة وخاصة في مساندتها ودعمها المتواصل للكيان الصهيوني. في أثناء تصفحه لموقعه وجد عدة مقالات لمحاضرات قدمها تشومسكي في عدة أماكن من العالم نشرت فيما بعد في مجلات أكاديمية منها: "الولايات المتحدة تنتهك مبادئ القانون الدولي" و"الولايات المتحدة ، إسرائيل، فلسطين" و "مواقف الأقطار العربية من اليهود وإسرائيل" و "عالم خال من الحروب" و "الإرهاب والرد المناسب" و "الرؤى الألفية". مقالات يعجز بعض الكتاب العرب عن تبني مواقفها، تبناها هذا الرجل اليهودي الشجاع المنفك من شرنقة يهوديته وسياسة دولته وإعلامها.

اكتشف شايل أن هناك أناساً أحراراً من شتى الديانات والشعوب لا يرضون باعوجاج ميزان العدل بين الأمم. بعد مرور عدة أسابيع على بَثّ لقاء ديفيد وقراءة مقالات تشومسكي كتب شايل قصة قصيرة في صحيفته تحت عنوان "الحب والحرية" متخيلا الحاخام ديفيد بطلا لهذه القصة، حيث تدور أحداثها حول قيام فتاة فلسطينية تدعى شيماء بإرسال

نداء عبر الإنترنت تناشد فيه الشعب الأمريكي المساعدة والتعاطف مع انتفاضة الأطفال لتحرير الأرض والحصول على الحرية أسوة بما حدث في جنوب أفريقيا ، وتحرير الكويت ، و كوسوفو ، وتيمور الشرقية أي وجود العولمة الإنسانية.

زودت شيماء نداءها بمجموعة من الصور الملونة عن مقتل الطفل محمد الدرة، وصور أخرى للرفع من درجة تأثير النداء. يصل النداء إلى رجل أمريكي يدعى ديفيد يتأثر كثيراً بمضمون نداء الشابة الصغيرة شيماء مما جعله يرد عليها برسالة تبين مدى تعاطفه مع قضيتها، ويعدها بأنه سيعمل شيئا لكنه لم يحدد ماذا سيفعل.

بدأت تتبلور لدى ديفيد فكرة عمل شيء عن الهم الفلسطيني نتيجة لتأثره بما قرأ وشاهد في خطابات شيماء المتكررة له وطلب المساعدة. يتجاوب ديفيد وايس هذا الرجل الذي اختاره شايل بطلاً لقصته القصيرة مما جعل صديقة ديفيد تتعاطف مع القضية. بعد مرور أسبوع على التعاطف الإنساني يقرر ديفيد الذهاب إلى مدينة شيماء المحاصرة وتذهب معه صديقته جنيفر. ينزلان في بلد مجاور لمدينة شيماء. يتسللان بعد جهد ومعاناة ويدخلان إلى مدينتها التي أصبحت كأنها مدينة أشباح،

يتصل ديفيد بشيماء من خلال الإنترنت ويذهب إلى منزلها برفقة صديقته جنيفر، حيث تظهر عليه آثار الإرهاق والتعب من جراء عملية تسلله إلى المدينة. يسكن لمدة ثلاثة أيام في منزل والدة شيماء لاسترداد عافيته على الرغم من عدم وجود أكل كافٍ يليق بديفيد وصديقته، وفي اليوم الرابع يتقدم ديفيد و جنيفر وشيماء ووالدتها في مسيرة الانتفاضة. تستمر المسيرة لمدة ساعتين، وتتعرض شيماء لطلق ناري من أحد الجنود وتسقط صريعة، فيحملها ديفيد وصديقته ووالدتها فوراً إلى المستشفى وهناك تموت شيماء وتطوى صفحة البداية. يرجع ديفيد وصديقته ووالدة شيماء إلى المنزل والحزن يعم الأجواء، بعد ذلك أرسل ديفيد عبر الإنترنت هذه الرسالة إلى الشعب الأمريكي: "إن عودتنا إلى الطريق الصحيح وإنصاف هذا الشعب المسلوب الحرية يحتاج إلى عمل مظاهرة تجسد حقيقة الشعب الأمريكي المسالم وطبيعته، ألا تذكرون المليون الذين تظاهروا في مدينة سياتل من أجل فقراء العالم والوقوف في وجه الصندوق والبنك الدولي؟ نحن نريد هذه المرة وقفة أخرى جادة مع شعب مضطهد ، ومع أرض مسلوبة ، فالحب والحرية وجهان لعملة واحدة. إن مهمتنا الآن نعتبرها مقدمة للدخول إلى عالم العولمة الإنسانية،

وهي تتمثل في وقوفنا مع قضية الشهيدة شيماء ، قضية الشعب الذي يخضع لمحرقة عمرها خمسون عاما دون أن تتحرك القوات الدولية بسبب تأثير فئة ما، ولكن تأثير الشعب الأمريكي سيكون أكثر بكثير من تأثير مليوني شخص. فنحن الشعب الأمريكي الذي يملك مخزونا من الحب والمعرفة لو وزعت على شعوب العالم لكفتهم لملياري سنة.
شاهدت طائرات تقصف وصدورا تستقبل ودماء تفوح، بربكم لا تخيبوا رجائي ورجاء شعب ضعيف أعزل. التوقيع ديفيد". يستقبل آلاف الأمريكيين رسالة ديفيد ويحتشدون في شوارع واشنطن بالقرب من البيت الأبيض بعد أن نسق معهم ديفيد خلال الإنترنت، حيث خطب فيهم ذلك اليهودي-واختار شايل المفكر اليهودي تشومسكي لهذا الدور- " إن مصداقية شعبنا وإنسانيته في محك التجربة لقد كانت قرارات حكومتنا سلبية جدا تجاه قضية هذا الشعب المقتول كل يوم، وإن كنت أحكم بنفسي بعدم كفاية عددنا الآن إلا أني أطالب ملايين الأمريكيين الوقوف مع هذه القضية. أريد من كل واحد منكم أن يحمل هذه الرسالة ويبثها هي وصور شيماء من خلال الإنترنت الوسيلة التي لا يستطيع أحد أن يمنع تدفقها.
أريد منكم جميعا إرسال خطاب تجاوب مع ذلك المقاتل من أجل الحرية

بسلاح الحب الذي نقدمه له جميعا. أمطروه بمئات الرسائل وقولوا له نحن معك، سنستصرخ الشعب الأمريكي لنخطو خطوة إلى الأمام. إن أغلب شعوب العالم تنظر إلينا بوصفنا شعباً على قائمة شعوب الأرض شعباً متقدماً و إنسانياً إلا أنهم في الوقت نفسه ينظرون إلى حكومتنا أو طرحنا السياسي في ذيل القائمة".

استرسل الكاتب شايل مع خياله فجعل جميع أبطال قصته من اليهود المعروفين بمواقفهم الإنسانية وخاصة مع الفلسطينيين؛ ابتداء من الحاخام ديفيد ، ومروراً بالمفكر تشومسكي ، وختاما بالمحامية اليهودية فليتسيا لانجر التي قضت سنوات عدة تدافع فيها عن المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية.

إن أبطال هذه القصة يستحقون أن يعيشوا في المدينة الفاضلة التي نسجتها مخيلة الفيلسوف اليوناني أفلاطون. كأن من اختارهم شايل أتوا ليكسروا القاعدة المعروفة على اعتبار أن المال هو القاضي المتعالي الذي يحدد معنى الصالح والطالح والقبيح والجميل.

إن أبطال قصة الحب والحرية كما يراهم شايل يتغذون من رحيق الحب والحرية، لذلك ثبتت جذورهم في أقصى أعماق العدالة الإنسانية

النسبية. بمواقفهم هذه اجتازوا اختبار القبول للسكن في مدينة أفلاطون. بدأ يتخيل شايل نفسه أنه مدير أعمال الفيلسوف اليوناني أفلاطون، ويريد أن يسجل أسماء من يرغب في إسكانهم في هذه المدينة الطوباوية. إنه في هذا الدور يصور نفسه في صورة صاحب مكتب عقاري يقوم بتأجير المساكن وفق شروط معينة أعدها، تقوم على التنصل من العرقية والمذهبية في حال انتهاك القيم الإنسانية ورفض إسكان الوصوليين والمحتالين وقطاع الطرق.

أطلع شايل أخته الأكاديمية روعه على قصته التي نشرها الأسبوع الماضي، امتعضت كثيرا من مفهوم الحب وقالت: " أنت تروج لشخصيات يهودية قد تعاقب على ذلك، وسوف تخسر أبناء جلدتك مقابل يهود سرقوا الأرض الفلسطينية ". إن فرقة ناطوري كاراتا وموقفها من قيام دولة إسرائيل بأنه تأييد للفلسطينيين في حين أن هذه الفرقة تمثل أشد أشكال اليهودية أصولية من حيث النظر إلى الإنسان الآخر والنقاء العرقي اليهودي.

(2)

الرحيل إلى المدينة

حملت السيدة عنقاء السعود طفليها شايلاً وروعه إلى المدينة. قالت: ليس هناك حاجة لي أن استمر في القرية، إن تعليم الطفلين أهم بكثير من المكوث في القرية.

ضحت عنقاء بعلاقتها مع زوجها من أجل طفليها. وافق حماد على رحيلهم إلى المدينة مُشْتَرِطاً ألا تعارض في حالة رغبته في الزواج من امرأة أخرى. إنه مسكون بحب القرية وطبيعتها الساحرة. كرّر حماد هذا الكلام على مسامع عنقاء. قال: سأفعلها هذه المرة.

رفعت رأسها من على طفليها النائمين وقالت: أتريدني أن آتي لك بشهود يسمعون موافقتي؟

قال:إنك تبيعينني.

قالت: من أجل أولادي أفعل المستحيل. أحس أن هناك شيئاً يجب أن أفعله من أجلهم ولن أندم عليه.

استأجرت منزلاً صغيراً في المدينة بالقرب من مدرستي شايل وروعه. إنها تملك يقيناً صارماً بأهمية التعليم، على الرغم من أنها لا تقرأ ولم تكتب. تريد أن تنتشل طفليها من فراغ القرية، وتدخلهم في جسد المدينة. إنها تحافظ عليهما من خلال تمسكه ا بالدراسة، وتحس بسعادة غامرة لأن طفليها سيتفوقان على بقية أبناء القرية. لا تفتأ تذكر أبناء القرية الذين يعيشون في فراغ كامل. فشل زوجها حماد الفليحان في إقناعها بالمكوث في القرية وانتظار فتح مدرسة فيها في العام القادم حسب ما قاله له عمدة القرية.

إنها مقتنعة أن التعليم هو علاج لمشاكل ابنيها، وهذا إحساس كسبته بالفطرة الربانية. إن انتقالها إلى المدينة لم يتحول إلى ظاهرة لدى سكان القرى المحيطة بالمدينة. فهي قد شذت عنهم ودفعت ضريبة ذلك بابتعادها عن زوجها وقريتها الجميلة. أصبحت تقضي جلّ وقتها في المنزل بصحبة طفليها غير آبهة بخلق علاقات مع جيرانها المحيطين بها. جارة واحدة اقتحمت عزلتها تدعى المقرئة فاطمة، تزورها أحياناً على الرغم من أنها مقعدة، تأتي في المساء كيلا يشاهدها أحد، تزحف مستخدمة يديها في حركتها ومن سوء حظها أنها في ليلة من الليالي وهي في طريقها إلى

منزل السيدة عنقاء انكسرت يدها اليمنى التي تتحرك من خلالها بعد أن زلقت في كومة من سعف النخيل. ليلة لم ينسها شايل. دائماً يتذكرها بوصفها دليلاً على قساوة هذه الحياة. أصرت عنقاء على فاطمة أن تمكث عندهم في المنزل حتى تشفى مما أصابها، وفعلاً جلست قرابة شهرين عندهم. تقوم عنقاء على خدمتها في كل وقت و بنفس راضية. أما ما تقوم به المقرئة فاطمة فهو تحفيظ شايل و أخته روعه سوراً من القرآن وسرد قصص من التراث الشعبي. أرادت المقرئة فاطمة الذهاب إلى منزلها بعد أن شفيت يدها إلا أن السيدة عنقاء رفضت طلبها لأنها أولاً تخاف أن يعود الكسر مرة ثانية، فثقلها سيكون مركزاً على يدها اليمنى. وثانياً لأنهم أحبوها. امرأة عظيمة بكفاحها وعزيمتها على الرغم من المرض الذي أصابها وهي صغيرة فنتج عنه شلل في القدمين فيما بعد، اعتنت بها أختها الكبيرة حتى توفيت وعمر فاطمة اثنا عشر عاماً. تعلمت قراءة القرآن منذ الصغر على يد إمام المسجد الذي يأتي عند غروب الشمس كل يوم إلى منزل التاجر محمد الحمد جار المقرئة فاطمة ليعلم ابنته قراءة القرآن.

بقيت المقرئة فاطمة في منزلها بعد وفاة أختها. أصبحت وحيدة، إلا أن جارتها عليا زوجة التاجر محمد قد فتحت بابا بين منزليهما لتقوم أسرتها

بالعناية بها. اقترحت عليا زوجة التاجر على المقرئة فاطمة أن تقوم بتدريس القرآن للسيدات الراغبات في ذلك وفعلا أصبح منزلها في الصباح مدرسة صغيرة.

طُول فترة مرض المقرئة فاطمة وطالباتها يزرنها عند السيدة عنقاء. أصبحت دار السيدة عنقاء مزاراً دينياً لكثرة من يترددن على زيارة المقرئة فاطمة التي أمضت أكثر من خمسة عشر عاماً في تعليم قراءة القرآن في المدينة، فهناك أعداد كثيرة من السيدات تخرجن من تحت عباءتها.

تتجمع أسرة السيدة عنقاء حول المقرئة فاطمة ليستمعوا إليها وهي تسرد عليهم القصة تلو الأخرى. في الأشهر الستة الأولى التي قضتها بينهم أنهت القصص القرآنية كلها تلاوة وشرحا فأوجدت خيطاً رفيعاً بين الأسرة و الذات الإلهية، يقوم على مخافة الفرد لله في كل صغيرة وكبيرة.

في إحدى الليالي وجهت السيدة عنقاء سؤالا لل مقرئة: هل يغفر الله للفرد أيَّ معصية يرتكبها الإنسان؟

أجابت المقرئة: نعم، إذا تاب وتوقف عن ارتكابها. ولكن لماذا تسألين هذا السؤال؟ ط ول وجودي في هذا المنزل وجميع فروض الصلاة

تقومين بها، و أيضا تزيدين من النوافل، إني أسمع بكاءك بعض الأحيان وخاصة في هذا الشهر الفضيل رمضان. إني لن أسألك عمّا فعلتِ، ولكن مهما عظم الإثم و المعصية فإن الله سبحانه غفور رحيم لمن لم يشرك به.

ما رأيك لو بدأت بتعليمك قراءة القرآن؟

عنقاء: أكون لك من الشاكرين. إني أرغب في ذلك، لنبدأ الآن.

مضى عام كامل منذ أن بدأت عنقاء تتعلم الكتابة والقراءة، وأصبحت قادرة على أن تقرأ القرآن مع مساندة المقرئة لها في نطق بعض الكلمات.وبعد عامين آخرين أصبحت عنقاء تنافس معلمتها في قراءة القرآن. أرادت المقرئة أن تضع حداً لبقائها عند جارتها، ثلاث سنوات ونصف كافية بالمكوث عندها وهي التي لا يربطها بها أي رابط أسري، لكن رابط الإيمان أقوى من ذلك. في اليوم الذي جمعت فيه المقرئة أغراضها للرحيل إلى منزلها؛ أتى من يخبر السيدة عنقاء بوفاة زوجها حماد.

أجلت المقرئة ذهابها بسبب جو الحزن الذي يسود أسرة السيدة عنقاء.

قالت المقرئة: لن أرحل حتى تنتهي فترة الحداد أي بعد أربعة أشهر وعشرة أيام، لكن قولي لي كيف كان تعامله معك؟

عنقاء: عشت معه قرابة سبع سنوات وهو ابن عمي، إلا أني لا أحبه ولا أكرهه، إنه رجل طيب ومسالم لكن قلبي ليس معه، لا يستحق الآن إلا الدعاء له بالرحمة والمغفرة . رحمك الله يا حماد لم يعص لي أمراً يوما ما.

المقرئة: هل هذا هو الشيء الذي تطلبين من الله أن يغفره لك؟

عنقاء: نعم.

المقرئة: كيف؟

عنقاء: سأخبرك فيما بعد لأن للموضوع تبعات، و أنا الآن لست مستعدة لمناقشته.

مرت الأيام والأشهر والمقرئة مازالت موجودة عند جارتها أو بمعنى آخر أختها التي لم تلدها أمها. هناك انسجام حدث بينهما.

بعد أن أنهى شايل وروعه المرحلة الثانوية وافقت السيدة عنقاء على أن تنتقل إلى العاصمة مع ابنيها ليتسنى لهما تكملة الدراسة الجامعية. عرضوا على المقرئة فاطمة أن ترافقهم ليستقروا هناك لكنها رفضت لأنها تكره أن تغادر المدينة التي ولدت فيها على الرغم من حبها العظيم لأسرة عنقاء، ومرة أخرى كرروا طلبهم أن تصاحبهم لأنها أصبحت جزءاً منهم وهم جزء من ثقافة امرأة عاشوا معها قرابة عشر سنوات تحت سقف واحد. أدركوا من خلالها أن الفرد يستطيع أن يتحول إلى صخرة تتحطم عليها جميع المشاكل كما فعلت هذه المقعدة التي تملك من الأمل ما يعجز عن ملكه عشرات الأصحاء.

قالت المقرئة ذات يوم وهي توزع نظرها على الجميع: إن الحياة فرصة لمن يقدر الفرص قبل ضياعها، فأنا لو لم استغل الفرصة و أتعلم لأصبحت الآن مقعدةٌ حقاً قد لا أكون معكم وأتعرف عليكم.

هزت روعه رأسها مباشرةً وقالت: أعدك أني سأتذكر كلماتك هذه كلما سنحت لي فرصة لاستغلالها.

حدق شايل وقال: إني تعلمت منك الكثير، كنت راغبا في البداية أن أتعلم النحو والتجويد لكني تعلمت منك أن أقفز فوق المواجع وأعانق السحاب.

كان الوقت متأخراً ولم تقل السيدة عنقاء شيئا إنما قامت لأداء صلاة التهجد والدعاء للمقرئة بطول العمر والجنة. أحيانا يكون الدعاء والعمل أفضل بكثير من ذرف الدموع. وقد تكون عنقاء من الذين يصعب عليهم البكاء في المواقف العاطفية.

جلست المقرئة في منزل السيدة عنقاء قرابة أسبوع وهي لم تدفن حزنها على فراقهم ولم ترحل إلى منزلها الذي أجرته و استمرت مستأجرة للمنزل الذي استأجرته عنقاء علّ ذلك يقنع السيدة عنقاء بالرجوع و السكن عندها في المنزل الذي قضت فيه عشر سنوات من عمرها وعمر ابنيها. إن أمل المقرئة فاطمة كبير في أن تأتي إليها عنقاء حتى لو كان ذلك مشياً على الأقدام.

مع إجازة الصيف الأولى في الجامعة حزمت عائلة السيدة عنقاء حقائبها للعودة إلى مدينتهم السابقة لقضاء الإجازة بجانب تلك المرأة التي تحسب لقدومهم ألف حساب وهم يقابلون ذلك بنفس الشعور. ظلت إحدى عيني المقرئة فاطمة ترف لمدة ثلاثة أيام في فترات متقطعة استشعرت من خلال ذلك بأن هناك شخصاً عزيزاً على قلبها سيأتي حيث إنها

ذكرت ذلك لطالباتها لتوثيق صدق شعورها. وفي صباح اليوم الرابع من حالة رفرفة عينها طرقت أسرة السيدة عنقاء باب المقرئة فاطمة.

احتضنت السيدة عنقاء المقرئة فاطمة وبادرتها بالقبلة تلو القبلة ودموعها منهمرة، إنه عناق صادق مدفون فيه حب صافٍ لا تشوبه شائبة.

قالت المقرئة: (من ذهابكم يا خلف أمي و أبوي والحياة عندي غير أول). أنتم لكم وحشة خاصة. حتى طعم الأكل في فمي أصبح مرٌّاً. فضلت أن استمر في المنزل كي أعيش مع ذكرياتنا السابقة. هل تصدقون أني كل ما أتذكر سواليف ومقالب شايل أضحك؟ كنت استرجع كل شاردة وواردة.

عنقاء: سنقضي عندك الإجازة الصيفية وستضيقين ذرعاً بنا. لكن على فكرة هناك هدية من شايل و أخته أصرا على أن أقدمها أنا لك وهي هدية متواضعة.

كانت الهدية كرسياً متحركاً لتستخدمه أثناء خروجها أو زياراتها لجاراتها. فتلك الليلة الحزينة التي كسرت فيها يدها اليمنى لم تفارق مخيلة شايل; إنها كالوشم منقوشة في الذاكرة.

طلب شايل من أمه أن تحمل المقرئة فاطمة وتضعها على الكرسي، يريد أن يريها الشوارع الرئيسة في المدينة، وفعلاً خرجت المقرئة من سجن منزلها لترى الناس كيف يتحركون في الشوارع. كانت طُول الفترة الماضية أسيرة لعالمها الخاص والآن حدث الاختراق.

في اليوم التالي لخروجها طلبت من السيدة عنقاء أن تذهب معها إلى السوق لشراء لوازم المنزل. أصبح مشروع الخروج يوميا حتى انتهت الإجازة، وعادت أسرة عنقاء إلى العاصمة لاستقبال العام الدراسي الجديد.

استطاعت السيدة عنقاء أن تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به معلمتها الأولى المقرئة فاطمة ، ففي الصباح بعد ذهاب شايل وروعه للجامعة تبدأ الحلقة الدراسية لتعليم القرآن لجارات السيدة عنقاء، فكلهن يردن تعلم قراءة القرآن لما لها من سحر بعد أن تحضر كل واحدة منهن وجبة الإفطار في اليوم المخصص لكل واحدة وبعض الأحيان تشارك

أكثر من واحدة في إحضاره . بدأت السيدة أم وديع جارة السيدة عنقاء بالالتصاق بها أكثر من بقية جاراتها لسبب في نفس يعقوب.

نظرات أم وديع لروعه هادفة عندما تزورها في الوقت الذي تكون متأكدة أنها في المنزل وليست في الجامعة. تريد أن تجمع بين رأسين في الحلال بعد أن تأكدت أن ابنها وديع معجب بها، فهو يشاهدها كل صباح أمام المنزل تنتظر حافلة الجامعة التي لا تنتظر أحدا إن لم يكن واقفاً في الشارع. صارحت أم وديع السيدة عنقاء برغبتها في زواج ابنها وديع من روعه. إلا أن روعه أقفلت موضوع الزواج حتى الانتهاء من دراستها الجامعية. في آخر سنة لها في الجامعة طلب منها أن تقرر ما إذا كانت ترغب في أن تصبح معيدة في قسم الأدب العربي وحينها تخوفت من إكمال دراستها العليا في الولايات المتحدة وهي امرأة بحاجة إلى من يرعى شؤونها وينهي إجراءاتها الإدارية، فالجامعة تشترط عليها وجود محرم يسافر معها. عرضت الفكرة على أخيها شايل الذي هو أيضا على وشك إنهاء دراسته الجامعية إلا أنه موعود بمنصب مدير التحرير في صحيفة الإثنين التي يتدرب فيها. اعتذر لأخته لأنه لا يريد أن يضيع فرصة عزيزة على قلبه، كم كان يتمناها طول دراسته الجامعية. على أيَّ

حال فهي لن تفرط في هذه الفرصة التي نزلت عليها من السماء وذلك نتيجة لمستواها التعليمي الممتاز.

اختزلت جميع من تعرفهم في شخص واحد قادر على أن يساعدها على السفر وإكمال دراستها. هناك من يتابع أخبارها ويعرف أنها على وشك التخرج والحصول على الشهادة الجامعية. طلب وديع من أمه أن تفاتح والدة روعه بتجديد الطلب السابق الذي انتظره أكثر من ثلاثة أعوام. عرفت روعه بطلب أم وديع وقالت: يخيل لي أن مشكلتي قد حلت على الوجه الذي أرغب فيه، فهو شخص عاقل وطيب وحاصل على الشهادة الجامعية ومفتون بي من أول مرة شاهدني أمام المنزل. لاشيء عندي يدور بيقين إلا أني لن أضيع على نفسي هذه الفرصة. وافقت على الزواج من وديع بشرط أن تواصل دراستها في الولايات المتحدة و أن يرافقها خلال مكوثها هناك. كل شيء حدث وفق ما تريد. وافقت وزارة الصحة للسيد وديع على بعثة للولايات المتحدة للحصول على شهادة الماجستير في إدارة المستشفيات. بارك شايل لأخته زواجها من وديع لاقتناعه الكامل بأنه شخص طيب وسمعته عطرة في الحي. تسارعت

أحداث الزواج والسفر في فترة وجيزة لم تتجاوز شهرين. وصلا بعدها إلى مدينة سانديياغو في ولاية كلفورنيا لدراسة اللغة.

مضت الأيام الأولى على سفر وديع وروعه ولاحظت السيدة أم وديع أن السيدة عنقاء قد تغيرت ملامحها و أن وجهها أصبح شاحبا بعد سفر ابنتها أحست أن شيئاً من نفسها قد فارقها. توقفت الحلقة الدراسية الصباحية التي تعقد في منزل السيدة عنقاء نظرا لحالتها الصحية، ثابرت أم وديع على زيارتها اليومية وطبخ وجبة الغداء وتنظيف المنزل، أمضت السيدة عنقاء أكثر من شهرين تدفن وجهها في ملابس ابنتها روعه وتشم ماتبقى من رائحة جسدها. يخيل لها أنها تحضن ابنتها وتشعر بالحنان والدفء. قالت: علمتني الأيام أن البنت أكثر التصاقا بأمها من الولد، و أن غضبها أقل بكثير من غضب الولد. كانت تسرد لي عشرات القصص التي تسمعها من صديقتها في الجامعة، وتغسل ملابسي، وتدهن جسدي، وتضفر شعري إنها بالنسبة لي النفس الذي يخرج من فمي و أنا بين يدي الله خاشعة أصلي. إن ذهابها اغتال السعادة عندي.

ردت عليها أم وديع: حتى الولد تفتقده أمه، لا فرق بين البنت والولد كلهم جزء من القلب، حتى فراشي لم يصبح هو فراشي في السابق. قبل سفر وديع كنت إذا تمددت فيه دقائق يحل علي النوم أمّا الآن فأجلس في الفراش ساعات وساعات والنوم يشرد عني، وتكثر وساوسي إني أخاف عليه من السحرة هناك.

قالت عنقاء: السحرة قلة في أمريكا. إنهم كثيرون في نيجيريا.

أم وديع: نصف سكان أمريكا سود أكيد أنهم أتوا من نيجيريا.

بانت خيوط أمومة أم وديع التي تقوم على عنصر الخوف الذي رضعته مع حليب أمها منذ الصغر.

شفيت عنقاء بعد مرور شهر من وعكتها الصحية الطارئة نتيجة ولهها الشديد على ابنتها. إلا أن حالة أم وديع بدأت تزداد سوءاً؛ أصبحت تأتي إلى دار عنقاء كل ساعة وتسأل: متى سيأتي ابني؟ هل هو بخير؟ وفي كل مرة تأتي تقرأ عليها عنقاء رسالة ابنتها التي تخبرها أنهما سيأتيان في شهر رمضان أي بعد شهرين.

عرف شايل بحالة أم وديع و أحضر لها طبيبا نفسيا قدر حالتها النفسية ووصف لها علاجاً تأخذه في المساء قبل النوم كي تنام وتخرج

من فخ الوسواس القهري اللعين. مرّ شهران كلمح البصر وعاد وديع وروعه وشيء في الطريق. ذهب وديع وروعه في الحال إلى منزل والدته ليطمئنا عليها، فوجدا عندها عنقاء تقوم على خدمتها، وبمجرد أن شمت رائحة ابنها أصبح الفم الفاغر مليئاً بالكلمات والحيوية وقامت من فراشها لعمل الفطور إنه أول يوم في رمضان.تحدث الزوجان عن الفترة التي قضياها في الولايات المتحدة ، إنها من أسعد اللحظات التي مرّا بها، إنها حياة جديدة بالنسبة لهما في مجتمع منفتح على جميع الألوان والطوائف والثقافات المتعددة وغني بثقافته التي تقوم على سيادة القانون.
قال وديع: لماذا لا تذهبين معنا يا أمي و أنت أيضا يا خالتي إلى أمريكا؟
عنقاء: أذهب وأترك ابني شايل وحده، وجاراتي وعلى رأسهم أمك، سنصبر على فراقكما حتى ترجعا لنا سالمين، نطلب منكما الزيارة كل رمضان والمرة القادمة سيكون معكما الطفل الأول إن شاء الله.

سارت الأيام على ما يشتهيان وأصبح رمضان يقضيانه عند والديهما حتى مضت ست سنوات كالبرق. عادا إلى أرض الوطن و معهما شهادتان. حصلت روعه على شهادة الدكتوراة في الأدب

السياسي، وحصل وديع على شهادة الماجستير في الإدارة وخاصة إدارة المستشفيات.

زال الخوف من قلبي أم وديع وعنقاء، وتغيرت ملامحهما بعد عودة وديع وروعه. كانت الرحلة التي قامت بها عنقاء وأم وديع إلى المقرئة فاطمة رائعة جدا فهي مفاجأة لل مقرئة وجاراتها. إن الفرحة التي هلَّت على المقرئة وجاراتها اختبار حقيقي للحب والإيمان لدى مجموعة الجارات الحافظات للقرآن. شهران و عنقاء وأم وديع في ضيافة المقرئة فاطمة. تجلس عنقاء شاردة الذهن بجانب أم وديع التي تسرد عليها المقرئة فاطمة قصتها مع المرض، عادت بها أفكار عشر سنوات أو أكثر خلت عندما استأجرت هذا المنزل وهي تحتضن طفليها قادمة من القرية. أحست أنها انتصرت على الجهل بتعليمها لطفليها، ابن يعمل مدير تحرير لأشهر صحيفة في العاصمة، وابنة حصلت على شهادة الدكتوراة. وهي أيضا أصبحت مدرسة في محو الأمية لكبيرات السن من جاراتها.

بعد أن قصت المقرئة فاطمة معاناتها مع المرض التفتت إلى عنقاء وقالت: على فكرة لقد طرق بابي قبل ستة أشهر رجل يبحث عنك وعن ابنك شايل. قلت له إنكما في العاصمة.

عنقاء: هل قال من هو؟ وماذا يريد؟

المقرئة فاطمة: لم أسأله عن اسمه، أو أنه ذكر اسمه ولكني نسيته، ولم يخبرني عن غرض بحثه عنك، كلّمني من خلف الباب ولم أشاهده، إنه صوت رجل كبير في السن.

لم تكن السيدة عنقاء مفتونة بحب الاستطلاع، لذلك لم تعر الخبر أي اهتمام، و إلا لقضت أياماً تسأل نفسها وتشغل من حولها عن ذلك الطارق الذي يسأل عنها وتفسد على نفسها حلاوة الزيارة لصديقتها. اعتقدت أنه من الأفضل السؤال عن جاراتها السابقات لمعرفة أحوالهن والاطمئنان عليهن. أوقفت المقرئة دروسها الدينية وتفرغت لاحتضان السيدة عنقاء وصديقتها أم وديع، و أخبرت جاراتها بقدوم السيدة عنقاء حيث أصبحن يزرنها في الصباح لتبادل الأحاديث والقصص الاجتماعية. فحديثهن يتركز حول أبنائهن وبناتهن وتعامل زوجات الأبناء معهن وبعض قضايا الجيران، قضايا بسيطة جداً والمناقشة لها

أبسط لقتل الفراغ، لم يكن هناك مشروع على نطاق الجارات يفيد الحي والجيران ويتعدى خصوصياتهن.

(3)

الإقناع المدوي

قالت: " أنت تروج لشخصيات يهودية قد تعاقب على ذلك، وسوف تخسر أبناء جلدتك مقابل يهود سرقوا الأرض الفلسطينية ".

انزعج شايل من كلام أخته والحرب التي شنتها على اليهود واستنكر على هذه المتعلمة الحاصلة على شهادة الدكتوراة في الأدب السياسي طريقتها في التعميم، فليس كل اليهود أنجاس على شاكلة شارون وليس كل العرب أخيار على شاكلة... لكنه سكت وقال فيما بعد:- "أضرب لك مثالا يا عزيزتي. إن مساحة الحب في قلوب البشر تختلف من فرد إلى آخر بغض النظر عن عرقه وديانته" قاطعته روعه قائلة:"أعرف أنك تلمح لعلاقتي مع زوجي وديع الذي انفصل عني بسبب موضوع الحب والعطاء، إنه هو من يتحمل المسؤولية والنكسة التي أصابت علاقتنا وانتهت بالطلاق البائن بعد عشر سنوات من زواجنا.

سردت روعه أشياء كثيرة عن زوجها السابق تظهر فيها مثاليته وواقعيته، إلا أنَّ لديه مشكلة واحدة هي التي أدت إلى انفصال هما فهو مفرط جدا في حبه لي ولغيري، إنه يذكرني بالشخصيات التي عاشت أثناء الحقبة اليونانية؛ حيث إنهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، لكن طبيعة زمننا هذا مختلفة جدا عن تلك الحقب الماضية.

جلس شايل على الأريكة الكبيرة في منزل روعه ومدّ رجليه. جهز نفسه لمواجهة مكشوفة مع أخته. يريد أن يجتر عليها كل التفاصيل التي سمعها من وديع، لكنه استسلم لسلطان النوم وأخته تعد الطعام. إنه يعرف عنها كل شاردة وواردة. يعرف جمودها غير الطبيعي فهي عندما تتحرك في المنزل لا تترك أي أثر لها يوحي بوجودها، فلا روائح زكية تنبعث ولا أصوات موسيقى تسمع و إذا فعلت ذلك فيكون الفعل من أجلها، فيكون جمهورها خارج المعادلة حتى لو كان الزوج أو الابن، إنها تركز على ذاتها كأن يديها غلت إلى جسدها وذاتها كالدور الذي تقوم به الأسلحة الدفاعية التي تبقى على أتم الاستعداد للتصدي لأي هجوم أو اختراق لسكنها أو لعالمها الخاص بها.

أصبح وديع في الفترة الأخيرة يستخدم شيئاً من القسوة في تعامله معها، وهذه هي المعادلة الصعبة التي يكرهها وديع وأيضا يمقتها إلا أن مردودها يكون إيجابياً. صرخة قوية وتأفف من وديع تهدأ بعدها الأحوال وتبدأ روح العطاء والطيبة عند روعه. ومن الواضح أن الفردانية عندما تصطدم بقوة تجبرها على أخذ مسلك الجماعة الذي يكون له آثار إيجابية على الجميع. فالفردانية "الريغانية" التي نمت في فترة الرئيس الأمريكي ريغان وخلقت رأسمالية بشعة ترك فيها للولايات المتحدة الحبل على الغارب، تأخذ ما تريد عبر القوانين التي تراها تخدم مصالحها، وفي الوقت نفسه تتنصل من القوانين والمعاهدات عندما تلزمها وتدينها.

أدرك وديع أنه لا ينفع مع هذه السياسة الريغانية وزوجته روعه إلا سياسة القوة والمجابهة كي يعيش وتعيش بقية الأمم بشكل أفضل. فوديع من الأشخاص المعجبين بشخصية الرئيس الفرنسي شيراك الذي ينادي دائما بخلق قطب سياسي آخر . إلا أن وديعاً ليس مستعدا للزواج من امرأة أخرى ويصبح لديه قطبان نسويان، مع اقتناعه الكامل بأن هناك عشرات الزوجات اللاتي تحسّن لديهن متغير العطاء بعد ارتباط الزوج بامرأة أخرى . استمر وديع لمدة سنة يختبر فرضيته التي تقوم على أنه

كلما شد في تعامله مع زوجته روعه انعكس ذلك إيجابا في تعاملها واهتمامها بزوجها. وكلما تعامل معها بطيبة وعطاء انعكس سلبا وأصبحت تطلب مزيد اً من التنازلات. وفي آخر شهر من ذلك العام توصل إلى نتيجة مهمة في نظره مفادها أن القوة لا تصنع الحب الحقيقي، إنما تخلق عبيدا خارج نطاق إرادتهم وقرر أخيرا الانفصال.

انتهت روعه من إعداد طعام الغداء بعد مضي ساعتين وهذا وقت كافٍ لإيقاظ شايل. طبخت له عدة أنواع من الأكل الذي يحبه بالإضافة إلى أنواع أخرى من المشويات. إنها سعيدة بزيارة أخيها لها لأنه ينقطع عنها بعض الأحيان عدة أسابيع، وتريد هذه المرة أن تشرح له العوامل الكامنة خلف طلاقها من وديع. إلا أن شايلاً سبق و أسمع أخته روعه كل ما يعرفه عنها ولم تنطق ببنت شفة حول ما ذكره لها بالتفصيل كما ادعى ذلك زوجها السابق وديع. طلبت روعه من أخيها أن يخبر وديع أنها مستعدة أن تتنازل له عن ابنها وأنها على وشك الزواج من شخص آخر يقدر قدراتها وإمكاناتها. فجأة بدأ شايل يكرر بيتي الشعر الشعبي لبصري الوضيحي الذي يقول:

البيض قبلي محسن عذبنه *** ونمر على وضحا جرى له عراضي

أحد يطيح بنار وأحد بجنة *** وترى الحظيظ اللي له الرب راضي

وفي ضوء ذلك وقف شايل كثيرا عند شطر بيت الوضيحي "أحد يطيح بنار وأحد بجنة" ، لأنه مقتنع تمام الاقتناع بأن وديعاً لم يقع في جنة إنما شوته حرارة الجفاف لمدة عشر سنوات، فهي بعيدة تمام البعد عن أي مؤشر يدل على الروعه. لم يزل الوقت مبكرا للحكم على السيدة روعه حسب ما يراه شايل لأنه بحاجة إلى أن يتأكد من خلال تجربتها الثانية فقد يكون الزوج الثاني من الفصيلة نفسها أي أنه قليل الاحتراق النفسي ويكون هناك نوع من التوافق داخل هذا الإطار النفسي يريد أن يعرف وديع حقيقة وضع ابنه هل هو من فصيلة أمه أم من فصيلة المحترقين من أجل العطاء. فالفردانيون يكرهون أي شي ء روحه العطاء، لذلك يبنون حياتهم على أسس مادية نفعية. أصبحت المسألة عويصة ومعقدة بالنسبة لوديع عندما دخل فيها متغير الولد، إنه لمن حسن الحظ أن سن أكثم بن وديع لا تتعدى ثماني سنوات، فقياس درجة العطاء لطفل صغير لا يمكن الحكم عليها في هذا الوقت المبكر. روعه شخصية تؤمن بمبدأ المصلحة المنطلقة من نظرتها العقلانية لطبيعة الحياة البشرية فهي تنظر بمنظور يختزل العلاقات الإنسانية في أقصى حدودها دون أي رائحة

للعاطفة والوجدان والمواقف الإنسانية. إلا أنها لا تؤمن أبدا بالسياسة الميكيافيلية ولا تقرب من لهيبها ولا تضعها منهاجا لها. لم يغب عن ذهنها هزلية الحياة فكانت تقضي بعض الساعات أحيانا بمشاهدة جيوش النمل في حديقة المنزل، فهي لا تنزعج أبدا من جيوش النمل، لأن هذا المشهد يذكرها بتفاهة وهامشية هذه الحياة المحدودة . تقوم بعض الأحيان بوضع ألوان وأصباغ بيضاء على بعض النمل الكبير وتحاول أن تتابع ما يجري لها. النمل بالنسبة لها مدرسة كبيرة فيها فصول الإصرار والعمل المتواصل وكوميدية النهاية. وفعلاً فإن النّشاط المحموم للنمل ينتهي دون غاية تذكر غير التكاثر وهذا جزء تكرهه روعه التي ترفض الإنجاب الكثير للأطفال، إنها اكتفت بطفل واحد بعد إلحاح شديد من زوجها السابق وديع. لم يكن غريبا أن جميع عينات النمل التي وضعت روعه اللون الأبيض عليها قد اختفت، لم يكن لديها أي تفسير لسبب الاختفاء إنما أثارت عدة احتمالات لا تعرف منها الاحتمال الحقيقي لذلك.

الاحتمال الأول أن النمل يفرز مادة كيميائية قادرة على إزالة المواد المشكلة للصبغة التي وضعت على أجسادها مباشرة ، و الاحتمال الثاني

ينم عن وجود محاكمة تمت لدى جماعة النمل وحصل لها تصفية جسدية لمن خرج عن قانون لون الجماعة ، قد تكون النظرة العنصرية موجودة لدى جماعة النمل ولكن على عكس عنصرية الرجل الأبيض. كل ساعة تقضيها روعه في متابعة النمل تزيدها اقتناعا بأن الإفراط في حب الإنسان للآخرين جزء من الطرح الأحمق الذي يقع فيه بعض الأشخاص وعلى رأسهم كما تعتقد أخوها شايل الذي يضع نفسه في عدة مواقف لا يحسد عليها في دفاعه عن قضايا الحرية على المستوى المحلي والقومي. إنها منزعجة من الطريقة التي يتعامل بها أخوها شايل مع قضايا المجتمع وذلك من خلال مقالاته التي يكتبها يومياً، حتى مع صغائر الأمور يقف شايل عند تفاصيلها ويحاول إيجاد الحلول لها. هذه هي طبيعة شايل حتى عندما كان طالبا في الجامعة كان يختلف مع والدته عنقاء في قضية إعداد الطعام لأنه يعرف أن أمه تستطيع أن تعمل الأفضل والدليل على ذلك أنها تتفنن في عمل الوجبات خاصة إذا كانت هناك مناسبات. إنه مسكون بهاجس الحرية حتى داخل أسرته ومع أقرب الأقربين إليه بينما تدرك روعه صحة موقف شايل من أمه لكنها لا تريد أن تخلق جبهة معادية معها.

إنّه شخص يريد أن يتحرر من كل قيد يثنيه عن إنتاج الأفضل، وكان في صغره ومراهقته يطرح ثقافة الاختلاف التي بدأها فعلا بصغائر الأمور مع أمه ولم ينهها بعد.

تزوجت روعه من الدكتور عيسى عبد الله طبيب باطنية يعمل في عيادة خاصة يملكها منذ عشرين عاما. يكبرها بخمس سنوات، تعرفت إليه من خلال مراجعتها له في عيادته لأنها تشكو من عدم توازن في قضية إخراج الفضلات، فبعض الأحيان إسهال مستمر وأيام أخرى تمر بشكل طبيعي. شخَّص الدكتور عيسى حالتها بأن ما تمر به هو مرض مكتسب بالوراثة وفعلا تشكو أمها من المشكلة نفسها، ففي حالة الإكثار من أكل المواد السكرية الطبيعية وغير الطبيعية تتأثر المعادلة ويكون هناك عدم توازن وهذه المعاناة لا يصحبها أي ألم إنما تشعر بإحراج إذا كانت في أماكن عامة أو في مناسبات خاصة. ثلاثة أشهر من الزيارات المتكررة لعيادة الدكتور عيسى خلقت قصة حب وإعجاب بينهما، انتهت نهاية طبيعية بالزواج الشرعي غير المنقوص بتنازلات عن حقوقها، إنما أكدت على حقها في أن تكون العصمة بيدها.

طرحت روعه على زوجها عيسى قضية متابعتها لجيوش النمل في حديقة منزلها وبمجرد الدخول في تفاصيل حياة النمل حتى بدأ تأففه لأنه يملك تجربة خاصة به عندما كان صغيرا، حيث عضته نملة كبيرة في خصيته فتسببت في مكوثه في المستشفى لمدة ثلاثة أيام وإعطائه جرعات مكثفة من المضادات الحيوية. طلب منها أن تقتل جميع جيوش النمل في حديقتها و إلا لن يدخل منزلها. انتقلت روعه إلى موضوع آخر وهو اشتياقها لابنها الذي لم تشاهده منذ شهر ، قاطعها قائلا لا تخافي إن سياستي تقوم على مبدأ زيادة النسل، عندي من زوجتي الأولى ستة أطفال وأطمح بطفل من عندك كل عام حتى نتوقف طبيعيا. صدمة ثانية لروعه، فشخصية وكاريزما عيسى قوية جدا تحول الشخص الآخر إلى شاة مذبوحة. انتقلت إلى موضوع ثالث وهو طلبها من الجامعة سنة تفرغ علمي للسفر إلى الولايات المتحدة، لإنجاز بعض الأبحاث العلمية، شجعها عيسى على ذلك ولكنه طلب منها تأجيل الطلب حتى يتمكن من مرافقتها بعد حوالي سنتين تقريبا لأنه يقوم هذه الأيام بتخطيط قطعة الأرض التي سيقيم عليها منزله الجديد الذي سيضمه مع زوجته الجديدة روعه.

صارحت الدكتورة روعه زوجها بأن موضوعاتها الثلاثة قد تم رفضها وهذه علامة غير صحية تدل على أن هناك خللاً في طريقة التفكير بين الاثنين. شرح عيسى لها موقفه الخاص من النمل على الرغم من أن هناك علاقات حميمة تنشأ مع النمل فقد حدثها عن قصة قرأها في مجلة عربية عن رجل يحكي قصة صداقته مع النمل حيث نمت هذه العلاقة بين مجموعة من النمل وشخص يسكن غرفة انفرادية في أحد السجون السياسية، النزيل يقاسم النمل خبزته شبه الجافة التي يتقطع وقت وصولها إليه، ذات يوم انقطع عنه النمل وتوقع أن سلطات السجن منعت حتى النمل من زيارته وبعد مضي عدة أيام وحيدا دخلت عليه من أسفل الباب نملة واحدة مما اضطره إلى أن يفكر بربطها بخيط رفيع أخذه من طرف ملابسه كي تشاركه في سكن هذه الغرفة الموحشة. لم تشفع له قصة النمل التي ذكرها عيسى للسيدة روعه واعتبرت طلبه الحقيقي بالتخلص من النمل هو جوهر الموضوع.

هي الآن في صراع مع نفسها لا تريد أن تثبت للآخرين مدى خيبة فرصتها الثانية. سكتت الليلة الأولى والثانية والثالثة وفي الليلة الرابعة أحست بضرورة الذهاب إلى الطبيب ليصف لها علاجا مريحا، وفعلا

بدأت باستخدام العلاج حال خروجها من الصيدلية. إنها تعيش مرحلة إذلال لكبريائها و أنانيتها.

المكسب الوحيد الذي جنته روعه من عيسى هو أن حالة الإسهال توقفت تماما وأصبحت تعاني من النقيض. ذهبت إلى طبيب باطنية وشخص حالتها بأن ذلك نتيجة للحالة النفسية التي تمر بها حيث أثرت على القولون العصبي الذي بدوره أثر على طريقة إخراج الفضلات. أخبرت روعه أخاها شايلاً بتفاصيل قصتها مع زوجها عيسى، فلم تترك صغيرة وكبيرة إلا وذكرتها لأخيها حتى تعامله الجنسي معها، فهي تعتبره وحشاً مفترساً في الفراش ودكتاتوراً في قراراته و أن مستواه التعليمي والثقافي لم يزده طيبة أو تواضعا في تعامله مع الآخرين. ذكّرها شايل بالطريقة التي كانت تعامل بها زوجها السابق وديع. إنها كانت تلعب الدور نفسه ولكن بشكل آخر. اقترح شايل على أخته أن تطلب الطلاق في أسرع وقت و إلا فإن حالتها الصحية ستتدهور بسبب إدمانها على المهدئات. تذكرت روعه أن العصمة بيدها، وأنها تستطيع الحصول على الطلاق متى ما أرادت . أقدمت روعه على تطليق زوجها وبمجرد فعل ذلك طرحت الدواء أرضا وأحست أنها امرأة لأول مرة منذ زواجها من

الطبيب عيسى. في الوقت نفسه الذي كانت تحادث فيه روعه زوجها كان شايل يتصفح جريدة عربية، فوقف عند خبر ثقافي مفاده "أن الروائي صنع الله إبراهيم امتنع عن استلام جائزة القاهرة للإبداع الفني" هذا الخبر سكب الزيت على النار عند شايل وجعله يوجه كلامه مباشرة إلى أخته روعه قائلا:"شاهدي عزيزتي هذه هي رسالة المثقف الذي خرج عن إطاره التنظيري، تنازل عن جائزة ليخط منهجا يجب أن يحتذى به. المثقف في الوطن العربي إما أن يكون مثقفا صالحا ولكنه للأسف صامتاً ممنوعاً من الصرف أو مثقفا مستهلكا مجرورا بأداة جر.

عزيزتي دعيني أقرأ عليك خطاب صنع الله إبراهيم:

"صدقوني إذا قلت إني لم أتوقع أبدا هذا التكريم كما أني لم أسع يوما للحصول عليه فهناك من هم أجدر مني به....... لا يراودني شك في أن كل مصري هنا يدرك حجم الكارثة المحيقة بوطننا وهي لا تقتصر على التهديد العسكري الإسرائيلي الفعلي لحدودنا الشرقية ولا على الإملاءات الأمريكية وعلى العجز الذي يتبدى في سياسة حكومتنا الخارجية إنما تمتد إلى كل مناحي حياتنا. لم يعد لدينا مسرح أو سينما أو بحث علمي أو تعليم، لدينا فقط مهرجانات ومؤتمرات وصندوق أكاذيب، لم تعد لدينا

صناعة أو زراعة أو صحة أو تعليم أو عدل.تفشى الفساد والنهب ومن يعترض يتعرض للامتهان وللضرب والتعذيب، انتزعت القلة المستغلة منا الروح في الواقع المرعب وفي ظل هذا الواقع لا يستطيع المثقف أن يتخلى عن مسؤوليته. لن أطالبكم بإصدار بيان يستنكر ويشجب فلم يعد هذا يجدي ، لن أطالبكم بشيء فأنتم أدرى مني بما يجب عمله. كل ما أستطيعه هو أن أشكر مرة أخرى أساتذتي الأجلاء الذين شرفوني باختياري للجائزة وأعلن اعتذاري عن عدم قبولها لأنها صادرة عن حكومة لا تملك في نظري مصداقية منحها". عزيزتي روعه إن الروائي صنع الله يريد أن يلوي ذراع ثقافتنا العربية التي هي عبارة عن تجاربنا الإنسانية ويضع داخلها تجربة جديدة لأول مرة في تاريخ جائزة الدولة التي يسيل لها لعاب مثقفينا، فهو ليس بالغني المتكبر على المائة (ألف جنيه)، إنما هو حر يأكل من ريع كتبه التي يقوم بتأليفها فهو لا يقع تحت طائلة الوظيفة التي يتحكم بها رجالات الدولة، إنه لم يخف من السلطة وسجنها. فرائحة السجن مازالت في أنفه وفي ضوء ذلك رفض الجائزة، فالسجن لم يزده انبطاحا كما فعل بعضهم بعد خروجهم من تبديل جلودهم وتغيير ما كانوا يعتقدونه ويؤمنون به، إنما زاده يقينا وإيمانا برسالة

ومسئولية المثقف. إنه إنسان جدير بالاحترام لموقفه هذا، إنه فتح الفصل الأول لمحو أمية المثقف العربي ، ولكن يا ترى من سيكون تلاميذه في الفصل الجديد، هل هم كتاب الرواية أم القصة أم أصحاب المدارس النقدية؟ وما جنسياتهم؟

إني مقدم على تسجيل اسمه ضمن أسماء سكان المدينة الفاضلة مع بقية المحاربين من أجل العدالة وذلك في روايت ي الأولى التي ستصدر بعد إكمال عدد سكان المدينة الفاضلة الذين لا يخضعون لانتماءات عرقية أو مذهبية، إنما هاجسهم ينصب على مفهوم الحرية للإنسان البسيط والمتعلم والمثقف. يريد شايل من هذه المدينة التي نسجتها مخيلة أفلاطون وناقشها الفارابي أن تعود الآن حتى لو كانت عن طريق مخيلتنا و أطروحاتنا لتقف وتشكل لبنة في جدار المقاومة للطرح العبثي الذي لا يرى أي دور للقيم والعدالة الإنسانية والبعد العقلاني.

بدأت مخيلة شايل تعمل على وضع أطر وحدود لصندوق الأكاذيب الذي أشار إليه صنع الله في خطابه إلا أن شايلاً دوّل هذا الصندوق تحت مسمى صندوق الأكاذيب الدولي ومقره الرئيس في إحدى الدول العربية من المحيط إلى الخليج . وهذا أول صندوق دولي يكون على التراب

العربي فقصة شايل هذه لم تركز على الشخوص إنما ركزت على البعد المكاني، حيث إنه العامل الحاسم في القضية.

علمت روعه بمشروع قصة شايل "الصندوق" ووجهت له نقدا لاذعا حين قالت له:" إنك فعلا تدور في حلقة اصطيادك لصغائر الأمور، إنك شخص لا تقدر الوقت وإلا لما ضيعت وقتك بكتابة قصة ضعيفة جداً".

تألم شايل من جعل أخته موضوع الكذب مضيعة للوقت وإنه لا يملك من وقته اليومي إلا القليل للنوم، فهو لا يجد الوقت الذي يستمع فيه لقصة الرجل الذي يشبه ديفيد، إلا أنه قرر أن يذهب هذا المساء إلى أمه ويبدأ في الاستماع إلى قصة جدايل مذود الطويلة عله يجد تفاصيل تفيده في أن يقترب أكثر فأكثر من شخص ديفيد، وقد تقربه هذه القصة من حضن أمه الذي تعود أن يسمع من خلاله عشرات القصص عندما كان صغيرا فقد تكون الجدايل مفتاح الحقيقة بالنسبة له.

(4)

سهرة مع القمر

روت السيدة (عنقاء) قصة حياة (مذود بطّاح) كاملة لابنها (شايل) بعد إلحاح شديد منه، فهو يريد أن يعرف الكثير عن حياة هذا الرجل الذي يشبه الحاخام اليهودي (ديفيد). لم يكن يعرف أن قصة حياة (مذود) طويلة جدا وشائقة في الوقت نفسه، فالمخزون المعلوماتي والثقافي لدى السيدة (عنقاء) كبير؛ لأنها ستحكي قصة عاشت مجملها وتفاعلت مع أجزاء كثيرة منها استغرقت أكثر من عشرين عاما. لم يكن غريبا أن تستمر رواية قصة مذود عدة أشهر نظرا لكثافة الأحداث وأيضا لاستفسارات شايل المتكررة. وانشغاله في بعض الأحيان بأعماله الصحفية، فليس له ساعات محددة أثناء يومه، فقد يبيت بعض أحياناً في الصحيفة. أرادت عنقاء أن تأخذ راحتها أثناء قص أحداث قصة مذود الدرامية لتطيل من وجود ابنها بجانبها وأيضا للاستمتاع بإعادة مناظر و أحداث القصة.

مذود صاحب الذوائب الطويلة التي تكاد تتطاير من فوق رأسه وهو يقفز من صخرة إلى أخرى متسلقا رؤوس الجبال المحيطة بقريته المستردة. مع كل نفس يتنفسه وهو في مرحلة القفز يتخيل نفسه كأنه على صهوة جواد . يريد أن يسابق الريح ليصل إلى قمة الشجاعة التي يسمع عنها في قصص من سبقوه؛ القصص التي تحكي شجاعة بعض أبناء قريته والمناطق المحيطة بها، وكذلك القصص التراثية مثل قصة (الزير سالم) وقصص بني هلال . في جنباته شوق كبير لتذوق طعم الموت واستنشاق رائحته، إلا أن في وقته ساد نوع من الهدوء والاستقرار السياسي وتوقفت الحروب والغزوات القبلية. إن المتأمل في حياة مذود لا يجد فواصل بين داخله وخارجه ولا مسافة بين فعله وعقله تاركا روحه تسبح بعفويتها ويعيش تحت ظل عالمه الأليف يهتدي بالنجوم ويسهر مرة كل شهر مع القمر. حرص مذود ابن الثامنة عشرة على أن يقضي جل وقته في الجبال المحيطة بقريته، ومنذ نعومة أظافره وهو مفتون بالذهاب إلى الكهوف، لكن دون أن يبيت ليلة واحدة هناك. أما بعد وفاة أمه والفشل في العثور على والده يقول:"أحس بالاختناق عندما أظل طويلا في داري، أريد أن أعانق واحتضن الطبيعة أتنقل من

كهف إلى آخر وأتنفس أكبر قدر من الهواء الطبيعي" الدار كانت رحبة جدا في ظل وجود أمه أما الآن فكل شيء قد تغير.

لم تكن وعورة مكان كهف مذود سداً عائقاً أمام زيارات الفتيات اللاتي يقمن بجمع علف للمواشي في القرية فكنَّ يزرن كهفه الذي صممته الطبيعة من فترة لأخرى. فهن قد اكتسبن مهارات في التسلق منذ الصغر. ذات يوم وأثناء وجودهن في مدخل الكهف دخل مذود ورحب بهن وطلب أن يشربن معه القهوة والشاي ويأكلن التمر. أخبرهن أنه سيقوم بنقل أغراضه من داره إلى كهفه. تكفلن بمساعدته ونقل أغراضه الثقيلة من قدور وفرش وحطب. أسرع وقت لنقل هذه الحاجات هو صباح غد وفي حالة خروجه من الدار إن لم يمر عليه أحد سيتركها أمام باب الدار فكل شيء في القرية في أمان. حملن كل الأغراض على رؤوسهن وعددهن خمس فتيات وانطلقن إلى الجبل قاصدات كهف مذود. تمنت عنقاء لو أنها هي الوحيدة التي تنقل هذه الأغراض حتى لو كلفها النهار كله، إلا أن بقية الفتيات لم يتنازلن عن حق المشاركة لإيمانهن العميق بأن مذود شخص طيب يستحق كل مساعدة فهو يشكل للقرية حجر الزاوية الذي يمكن أن يستند عليه أي فرد من أفرادها لأنه يملك

قلباً مليئاً بالحب يتسع لكل من حوله بدون تحديد. فطبيعة المكان الذي تشكله القرية بأشجارها وجبالها وطيورها وأغنامها وهي تتسلق الجبال تعطي الأشخاص الذين يفقهون مفهوم الحب لكل صغيرة وكبيرة بعيدين عن اختزال الحب بالممارسة الجنسية وبعيدين عن النزاعات القبلية، يعيشون جواً من الألفة والمحبة. فالبعد الأخلاقي قوي جدا بينهن ويشترك في ذلك مذود الذي ينظر إليهن بكل احترام، فلم يساوره يوم بأن يكسر الحاجز الأخلاقي ولم يمر من قبل بتجارب أخرى فيها الخطوط الحمراء. إنه نظيف من الآثام والعيوب. إنهم مجموعة متآلفة لم يحدث في سيرهم أي اعوجاج، يعملون من أجل الحصول على لقمة العيش، فرؤياهم للعالم لا تتعدى أطراف القرية وجبالها المحيطة بها لا توجد لديهم أي قضية يناضلون من أجلها. ببساطة إنهم يل تحفون السماء ويتوسدون الأرض أثثوا حياتهم بأشياء محدودة تقوم على البساطة المتناهية في عقليتهم واحترام بعضهم لبعض.

انتهى فصل الشتاء وحل فصل الربيع والأودية الجبلية المحيطة بكهف مذود مليئة بالمياه. أطلق اسم "خذوه" على كهف مذود لأنه أقسم ذات يوم على الفتيات يمينا إن أردن شيئا منه أو من الأشياء الموجودة

في كهفه فلا يترددن بأخذه حتى لو كان في غيبته. تعودن على أن أي شيء يطلبنه منه أن يكون رده خذوه. طبع في أذهانهن كرم هذا الرجل الشاب الذي لم يرفض أو يتوانَ في تقديم أي خدمة لهن.

إنه يعتذر عن قبول الحليب الذي يأتين به بحجة أنه لا يشرب حليب الماعز. والحقيقة عكس ذلك إنه يرى أن أطفال القرية أحق به منه. ويركز دائما كلامه على أن حليب الماعز لا ينفع إلا للصغار ليقوي أجسامهم. هاهو يفضل أن يعطي كل ما عنده على ألاَّ يأخذ شيئا من أحد. بمعنى آخر إنه يتخفف عن الآخرين فهو يبتعد عن أن يكون ثقيلا على أي شخص حوله. حالته النفسية تنم عن أنه يسير في اتجاه واحد يقوم على العطاء تحت مظلة الحب التي يسكن تحتها دون أن يدرك حقيقة هذا الفعل العظيم. حبه يظهر من تقاسيم وجهه ومن صوته وصلواته ودعائه الهادئ الذي يقوم على حبه للإله فليس للخوف مجال عنده حتى في ممارسته لشعائره الدينية. إنه مجموعة مشاعر تنم عن الفرح والتفاؤل لا توجد عنده أية نظرة سوداوية أو منطقة ضبابية أو حتى رمادية، يصحو مع بزوغ أشعة الشمس ويستمتع بأصوات العصافير وأنواع أخرى من الطيور. فطيور القرية خليط من عدة أنواع من طيور مهاجرة استقرت،

وطيور أخرى تحس أنها موجودة منذ وجود هذه القرية كأنها شاهد على خلق هذه القرية وتكوينها. فالجميع يتمتع بجمال طبيعة هذه القرية.

ليلة غريبة الأطوار حدثت لمجموعة الفتيات و كان ذلك بعد قضاء ظهيرة من الراحة والانبساط والسباحة في بركة مليئة بالمياه العذبة, ولكن الشيء الغريب الذي حصل بعد الانتهاء من السباحة هو أن جميع ملابسهن قد اختفت. لا أحد يعرف من سرقها أو من مازحهن وأخذ ملابسهن. لا يغطي أجسادهن إلا قمصان قصيرة وسراويل طويلة.
انزعجن بشكل مفزع، كيف يمكن لهن الذهاب إلى أهاليهن بدون ملابس؟ خطر ببالهن الذهاب إلى مذود وطلب المساعدة منه. من حسن أو سوء حظهن أنهن لم يجدنه في الكهف. جلسن بمفردهن وأشعلن النار لشعورهن بالبرد عندما خيم عليهن الظلام وغابت الشمس. عملن لهن إبريقاً من الشاي وآخر من القهوة وأكلن من التمر حتى الاكتفاء. وبدأن ينشدن بصوت مرتفع:

ياعل من يزرع الشاهي *** مايجرب الحزن والونة

من خلقته والولد لاهي *** والبيض ياجن يعملنه

بدأن يتساءلن عن مذود أين هو؟ هل هو من أخذ ملابسهن نوعاً من المداعبة أو أنه يراقبهن عن بعد لعله يستطيع أن يشاهد أجسادهن عارية بعض الشيء ومبلولة. تحركت مشاعر عنقاء وقالت" أرفض تمام الرفض اتهام مذود بأخذ الملابس فهو رجل شهم لا يفعل ذلك. فكونه غير موجود فهذا دليل لصالحه وليس من أجل اتهامه. إني بدأت أقلق عليه، آمل ألا يكون حصل له مكروه. نحن الآن بعد منتصف الليل والقمر مازال ساطعا في السماء. سألت عنقاء من ستذهب إلى القرية وتجلب معها ملابس للجميع قبل شروق الشمس؟ لم يجبها أحد على سؤالها. وقالت " بس سأذهب بنفسي" وذهبت فعلا. خافت أن تذهب إلى منزل والديها وهي شبه عارية. توجهت إلى منزل مذود وطرقت الباب ووجدته مستيقظا لم ينم. احتضن مذود مشكلة عنقاء وصديقاتها بكل هدوء وقال:" أكيد فعلها الخسيس الراعي حميدان" لأنه شاهده متوجها إلى الجبل في وقت الظهيرة وللمكان الذي استحممن فيه.

ترك مذود الفتاة عنقاء ترجع إلى زميلاتها في أسرع وقت وذهب هو إلى خيمة حميدان وطلب منه الملابس بأسرع وقت و إلا فضح أمره في القرية وأصبح صيدا سهلا لغضب أهلها. أخبره حميدان أن الملابس

مازالت على الجبل بالقرب من المكان الذي سبحن فيه تحت مجموعة من النخل. عرف مذود المكان وانطلق مسرعا فالوقت قصير وشروق الشمس قد قرب. ذهب إلى المكان فوجد الملابس. حملها إلى الفتيات في الكهف و بدأن يلبسن ملابسهن وأشعة الشمس تظهر. لا أحد في القرية يعرف عن هذه الحادثة شيئا فالجميع سكت وتكتم عليها حتى الراعي حميدان لم يفصح عن الحادثة لأنه طرف فيها ويخاف من العقاب. لا يوجد في قاموس الراعي حميدان شيء اسمه عطاء إنما هو مفتون بشيء اسمه الأخذ وهذا على النقيض من شخصية مذود. رجلان يعيشان في قرية واحدة يشربان من مائها ويأكلان من تمرها ويستنشقان أوكسجينها والحصيلة متناقضة. قد يكونان ورثا ذلك من عائلتيهما. إنهما لا يجيدان القراءة ولا الكتابة. أميان يعيشان بالقرب من بعض. إنهما شخصان يتعاملان مع الخير بطريقتين مختلفتين.

طلبت الفتيات من مذود أن يخبرهن عن سبب غيابه هذا اليوم عن الكهف والمكوث في الدار، أردن أن يعرفن عنه كل صغيرة وكبيرة فشخصيته أصبحت في قلوب الفتيات جميعا وخاصة قلب عنقاء التي ترى في شخصه كل مقومات الرجل الفاضل والزوج الناجح. تنظر إليه

على أنه مكرمة إلهية يسعد من يفوز بها. يكشف سؤال الفتيات عن غياب مذود ذلك اليوم جانباً مغفلاً ومجهولاً في حياته. تربى منذ الصغر وعمره ثلاث سنوات على متابعة القمر في مرحلة اكتماله، فكان يشاهد والدته وهي مستلقية على ظهرها تخاطب القمر قائلة: "يا صبيح" أخبرنا عن زوجي عله بخير. استمرت والدة مذود طـ ول حياتها تناجي القمر آملة أن يهمس في أذنها أنه موجود في المكان الفلاني أو ينقل هذه الأحاسيس إلى زوجها.

ذهب (بطاح) في الليلة الثانية من زواجه مع حملة متجهة إلى العراق لطلب الرزق هناك وهذا آخر علمها بزوجها، وبعد مضي تسعة أشهر من زواجها من (بطاح) رزقت بطفل أسمته مذوداً.

اكتسب الطفل مذود طريقة السهر مع القمر في منتصف كل شهر لتقمصه حركات أمه، لكنه لا يحمل المعاناة نفسها التي تحملها امرأة فقدت زوجها، فليلة واحدة لا تشبع أوجاع الوحدة التي قضتها بعد فراق زوجها. لا تريد أن تقدم على الزواج من رجل آخر حتى تتأكد من وضع زوجها. بعد ولادة مذود مباشرة تقدم لها شيخ القرية (صبر العلي) للزواج منها إلا أنها طلبت تأجيل ذلك حتى تتضح حالة زوجها (بطاح).

أصبح كل سنة يتقدم لها الشيخ صبر بطلب يدها وهي تؤجل إلى السنة التي تليها على الرغم من إعجابها الشديد بشخصية الشيخ (صبر) الذي يحدثهم القصص القرآنية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. أغلب عجائز القرية وفتياتها يسمعن له وخاصة خلال شهر رمضان المبارك، إنه مفتي القرية الأوحد وليس هناك من ينافسه في فهم المسائل الدينية.

مرت السنوات بسرعة وتجاوزت سن مذود الخامسة عشرة والقمر لم يفعل شيئا. بدأت الحالة الصحية لوالدة مذود بالوهن والاعتلال، طلب مذود من والدته السماح له بالذهاب إلى العراق عله يجد خبرا عن والده، لكن طلبه قوبل بالرفض. إنها تخاف عليه ولا تريد أن تفقده مثل أبيه في غياهب العراق البلد الذي يحمل بين جنباته أعراقا وثقافات مختلفة تجعل الشخص الكبير قابلاً للضياع فكيف بالصغير؟. لم يمهلها المرض إلا عدة أشهر فارقت الحياة بعدها وقلبها كله أشواق واحتراق على رجل أحبته قبل أن تتزوجه وفقدته بعد يوم واحد من الزواج. كانت ضد فكرة ذهابه إلى العراق إلا أنه عنيد لا يسمع لأحد كأنه يقوم بالدور نفسه الذي قام به الشاعر العراقي (إبن زريق) البغدادي عندما ودع زوجته في أسبوعها الأول وذهب إلى الأندلس آملا في تحسين أحواله المادية إلا أن الأقدار

أكبر وأقوى من طموحه ولم يحقق ما كان يصبو إليه ، فحرم من حبيبته وأنشد:

لا تعذليه فإن العذل يوجعه *** قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

ودعته وبودي لو يودعني *** صفوُ الحيَاة وأني لا أودعــه

وجدوا الشاعر البغدادي ميتا متوسدا قصيدته بعد أن فشل في تحقيق مهمته والرجوع إلى زوجته خالي اليدين. فكلاهما ترك حبيبته من أجل إضاءة طريقه لحياة فاضلة ميسورة. ثم أصبحت رحلتهما ذهابا بدون عودة. فالشاعر لم يعد إلى ابنة عمه في بغداد و بطاح لم يرجع إلى زوجته في المستردة وأصبح ابنه مذود بعد وفاة أمه يتيم الأبوين. فمرض عشق أمه لأبيه أكد حقيقة أن هذا الابن سيصبح بدون عائل أو معين، ولكن ما خفف المصيبة أن رحيل الأم أتى بعد فترة طويلة من ولادة مذود مما أدى إلى اشتداد عوده و أصبح قادرا على مواجهة الحياة وتحدياتها.

بعد وفاة أمه بدأت تقسو عليه الحياة بشكل أكبر، إنه الآن المسؤول عن نفسه وداره وكهفه، كان في السابق يسبح في الفضاء أما الآن فالفضاء يسبح في داخله. بدأ يفكر الآن جديا في البحث عن عمل

للارتزاق منه، فقد سمع أن الدولة تسجل جنودا في الشرطة العسكرية لكنه يجهل تفاصيل ذلك . قرر أن يخوض التجربة بنفسه. نزع من ذاكرته الكهف ومن يأتي إليه ليس نكرانا للجميل إنما هو مقتنع أن لا قيمة له في حالة عدم تمكنه من الصرف على متطلبات الكهف ومن يأتي إليه لطلب العون. لملم مذود ما عنده من ملابس ليرحل إلى المدينة ويلتحق بدائرة الشرطة حديثة التكوين. سافر و لم يودع من يعرف وخاصة الفتيات، ولم يوصِ أحداً بالقيام برعاية كهفه وداره ولم يترك أي خبر يفيد أنه سافر إلى المدينة، للعمل هناك. إنه شخص دقيق لا يريد أن يشيع الخبر قبل أن يتأكد من حصوله على الوظيفة الجديدة خوفا من حدوث أي عائق يمنعه من ذلك لأنه يعرف أن هناك شروطاً لمن أراد أن يسجل في العسكرية من ناحية الطول والوزن والنظر. أراد أن يرحل في هدوء ويعود إليها عندما تتحسن أموره المالية فرحيله مربوط بالبعد المادي.

(5)

طارت بها الريح

مذود: السلام عليكم.

الحارس "الجندي":وعليكم السلام والرحمة ماذا تريد؟

مذود: أريد أن أسجل في العسكرية.

الجندي: اذهب إلى الحلاق أولاً، ستجده بالقرب من السور هناك.

مذود: هل لابد من حلق ضفائري؟

الجندي: الحلاقة أول الشروط من أجل حسن المظهر وكذلك إزالة القمل.

مذود: لكن اليوم يوجد في الجو عج كثير ، كيف يتمكن الحلاق من أداء عمله؟

الجندي: لا عليك. الحلاق لا يضيع وقته، يأخذ على كل رأس مبلغ من المال.

مذود: توكلت على الله سأذهب إليه.

مذود: أنت الحلاق؟

الحلاق: ألا تشاهد الموس بيدي لقد فرحت عندما شاهدتك تتقدم باتجاهي. اكشف عن رأسك.

مذود: الهواء شديد اليوم.

الحلاق: نعم، ضع رأسك بين يدي.

مذود: وضعت رأسي و ابدأ عملك.

الحلاق: بسم الله.

مذود: لولا الحاجة لما اقدمت على حلق شعري.

الحلاق: شعرك كثيف وطويل جدا، المفروض أن أخذ أجر رأسين.

مذود: الشعر يتطاير لماذا لا تجمعه؟

الحلاق: شعرك طارت به الريح وتوزع على المعسكر كله.

مذود: لا بل قل على المدينة كلها.

الحلاق: انتهى الآن كل شيء واذهب إلى الحارس هناك.

انطبقت جميع الشروط عليه من حيث الطول والوزن والمظهر العام ومرت فترة التدريب العسكرية بسرعة. لم يعانِ مذود كما عانى زملاؤه من قلة اللياقة فهو يملك لياقة جسمية عالية، تفوق جميع أفراد السرية

التي شارك فيها . إلا أن هناك شيئاً حدث فيما بعد وانقلب كل شيء رأساً على عقب. فشهر العسل انتهى والإعجاب الشديد بالزي العسكري قد انتهى وأصبح يشعر بأن ثقل البدلة التي يلبسها تضاعف عشرات المرات . بدأ يكره تنفيذ الأوامر العسكرية والتمرد على رؤسائه. اقتنع أن العمل العسكري نوع من السيطرة التي لا يطيقها. أمضى ستة أشهر بوصفه جندياً يقوم بحراسة غرفة التوقيف.

كان يتعامل مع الموقوفين بكل احترام مما جعله يكسب ودهم و أصبحوا يبوحون بأسرارهم وهمومهم له. كان يصدق كل ما يقال ويتأثر به. لقد تأثر بقصة الموقوف (طارش عبد الله) الرجل الذي اشتكاه جيرانه بسبب عينه القوية على حد زعمهم؛ حيث تخرج منه بعض الكلمات التي يتأثر منها الآخرون وتنعكس سلبا عليهم وأصبح وجوده كالشوكة المعترضة في خاصرة الحي. إنهم يكرهونه جدا ويخافون على ضيوفهم منه في المناسبات العامة والخاصة ولذلك يعيش بمعزل عن جيرانه إلا ما ندر لقضاء بعض الحاجات. حلف لهم كثيرا أنه لا يملك ما يزعمون وأن ما يقوله هو كلام عادي ككلام الآخرين إلا أن حالة الآخرين لا يتزامن معها وقوع حدث سلبي كالمصادفة عندما تفعل الكثير. اعترف

لمذود في أحد الأيام أنه حاول أن يؤذي شخصاً ببعض الكلمات القوية إلا أنه لم يحدث شيئا أي أن المصادفة لم تقع.قرر مذود ترك العسكرية بعد أن استلم رواتب الأشهر الستة التي عمل بها جندياً للحراسة على غرفة الموقوفين، وسلم العهدة التي بحوزته وهي بندقية، وودع زملاءه وجميع الموقوفين في الغرفة ورحل.

اتجه إلى سوق المدينة راغبا في أن يشتري شيئا يحمله معه إلى قريته وكهفه. إن رواتب الأشهر الستة شكلت له عبئا ثقيلا يريد التخلص منه ولكن بشيء نافع ومفيد. توقف مذود عند سوق البهائم،فرأى مجموعة من الأشخاص ومعهم قطيع من الأغنام أتوا لبيعه. يحب مذود الأغنام ويشعر بنوع من الألفة معها وخاصة الماعز التي تتسلق الجبال إلا أنه لا يحب أن يقوم برعايتها اليومية، و أثناء وقوفه في سوق الغنم شاهد الخال (فلاحاً الوتد) من أقارب أمه ومعه مجموعة كبيرة من الغنم تتجاوز مائة رأس يريد أن يبيعها لسبب يراه أنه مهم وضروري. شرح الخال (فلاح) سبب مجيئه للمدينة و أن ذلك لبيع أغنامه وشراء تجهيزات لزواج ابنه (دايس) والرجوع للبادية فهي لم تزل في أعماقه ولا يريد الانتقال إلى أي مكان آخر كالمدينة أو القرية. لا يمل من الاهتمام

بالأغنام بل كان يتمنى لو أتاه الموت وهو بجانبها يشم رائحتها ويسمع ثغاءها لكن حبه لابنه الوحيد دايس جعله يضحي بكل ما يملك من أجل أن يشاهد أحفاده وهو على قيد الحياة. كانت أغلب أغنام الخال فلاح على وشك الولادة مما يوحي بإمكانية تضاعف أعدادها خلال شهر أو شهرين و الأمطار هذه السنة كثيرة جدا.

بدأ مذود يفكر في شراء جميع أغنام خاله فالمبلغ الذي معه ضعف قيمتها إلا أن القضية الكبرى لديه هي رعايتها. استدرك قليلا و سأل خاله: "لو قمت بشراء أغنامك هل تقوم أنت برعايتها والاهتمام بها؟ " أجاب الخال بنعم بل إنه سيسعد بذلك. عرض مذود فكرة الاهتمام بها مقابل إنتاج الأغنام من الألبان و الأقط والصوف وهذا ما هو متعارف عليه عند أهل البادية و أضاف مذود ذبائح الأعياد من الذكور أيضا. سلم مذود خاله المبلغ وودعه وذهب إلى جزء آخر من السوق خاص ببيع الأدوات الكهربائية لشراء (راديو) ، وفعلا اشترى (راديو) ماركة (فليبس) ومجموعة من البطاريات تكفيه لعدة أشهر وأكياساً من الشاي والسكر والأرز وخروفاً صغيراً مذبوحاً. اتفق مع صاحب حمار لحمل أغراضه وتوصيلها إلى قريته التي تبعد عن المدينة سبعة أكيال.

بعد مضي أربع ساعات وصلت الأغراض التي اشتراها لأن صاحب الحمار قد مر بمنزله وأكل وجبة الغداء عند زوجته قبل الذهاب إلى القرية. وجد الحمال مذوداً في داره قد سبقه إليها. حمل مذوداً الراديو وبعضاً من الشاي والسكر وترك بقية الأغراض في المنزل واتجه إلى الكهف.

دخل الكهف فوجده نظيفا مرتب الأغراض. شب مذود النار بكثافة ليبلغ الآخرين بقدومه. جهز الشاي والقهوة وفتح على الراديو ليسمع أغنية (بين الدوالي) للمطربة الأردنية (سلوى). أحس بسعادة لا توصف لأنه رجع الآن إلى حريته السابقة دون أوامر أو سماع لقضايا الموقوفين، أمن الآن مستقبله بصفقة الأغنام و أكل يكفيه لعدة أشهر. الآن بدأ يفكر بشكل جدي في الزواج. شاهد ت الفتيات الدخان الكثيف المنبعث من جهة كهف مذود وأدركن أن صاحب الكهف قد عاد بعد غيبته الطويلة. انتهت عنقاء من جمع العلف وربطته استعدادا للذهاب إلى القرية إلا أنها فضلت أن تمر على الكهف لتتأكد أن صاحبه قد عاد وإحساسها يؤكد لها أن من فقدته ط ول الأشهر الستة الماضية هو الآن يتنفس معها أوكسجين الجبل الذي تتنفسه هي. في داخلها حب كبير

لمذود ولكنها لم تتفوه لأحد من قبل حتى للمحبوب، فقاسم الإخفاء مشترك بينهما فهي أقرب واحدة لقلب مذود . وصلت عنقاء إلى الكهف حيث رحب بها ترحيبا حارا وأحس أن المسافة بين قلبيهما أقرب من المسافة الحقيقية التي تفصلهما عند باب الكهف.

بعد مرور ساعة من الزمن وصلت بقية الفتيات و بدأ مذود بتقديم الشاي والقهوة والتمر، حمدن الله على سلامته ووصفن له مشاعرهن الحارة تجاهه وأن الجبل والوادي قد ضاق بهن، طلبن منه أن يخبرهن عن العسكرية التي باع من أجلها القرية والأحباب، فطلب منهن مساعدته في إحضار الخروف وبقية طلبات العشاء الذي سيقدمه لهن بمناسبة عودته وتركه للعسكرية، يريد أن يجعل هذه الليلة عامرة بالفرحة والأحباب و انعتاقا من العسكرية والعودة إلى الحرية.

وقفت عنقاء وبسرعة وقالت أنا أول من سيذهب إلى دارك، إلا أنه طلب من الجميع الذهاب لأن الأغراض كثيرة والمسافة ليست بالقصيرة. أعطى مذود مفتاح باب الدار لعنقاء وذهبن جميعهن بسرعة وسارت عنقاء كأنها قائد الغزلان، ظلت ممسكة بالمفتاح بيدها حتى وصلت إلى باب الدار وفتحت الباب بصعوبة لأن المفتاح من خشب و أثناء الطريق

ارتوى المفتاح من عرق يدها، حملت الفتيات الأغراض بسرعة واتجهن إلى الكهف. شاهدهن الراعي حميدان ومعهن الأغراض وعرف أنهن متجهات إلى الكهف. طلبت عنقاء من مذود أن تطبخ العشاء لأنها بارعة في الطبخ والبقية يساعدنها، بعد مرور ساعتين جهز الأكل فإذا بالراعي حميدان يدخل عليهم. سلم حميدان على مذود وحمد الله على سلامته وجلس. لقد طبخت لهم عنقاء كامل الخروف وعددهم رجلان وخمس نساء.

أثناء الأكل فتح مذود جهاز الراديو فخاف الجميع وصرخ حميدان أعوذ بالله أعوذ بالله نحن في نهاية الدنيا يتحدث الحديد إنها من علامات الساعة التي أخبرنا عنها رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام. انتهى مذود والفتيات من الأكل الذي تبقى نصفه وحميدان مازال يأكل بعد ذلك بنصف ساعة. أكل حميدان البقية.أقفل مذود الراديو وبدأ يقص عليهم الأحداث التي مر بها أثناء فتره الخدمة في العسكرية بدءا من حلق رأسه إلى شراء الأغنام و إيداعها عند خاله فلاح ومحاولة اختبار حظه مع التجارة .

بدأت نظرات حميدان تتوجه باتجاه عنقاء، إنه يعشقها ويريد الزواج منها وأكثر من مرة فاتحها بالموضوع وهي ترفض وتهدده بإخبار والدها. لقد شبع وأكل نصف الخروف تقريبا، أشبع معدته ويريد أن يشبع عينه من نور العين عنقاء. سمع الجميع عواء ذئب من بعيد فخاف حميدان من أن يفترس الغنم التي في عهدته بالقرب من خيمته فقام وودع الجميع وانطلق إلى غنمه وأثناء انطلاقه بدأ ينصب الفخ ليصطاد به عنقاء ومذوداً. وصل حميدان إلى خيمته ولم يحس بأي شيء حول الغنم ثم اتجه إلى خيمته ونام . في الصباح الباكر ذهب حميدان و أخبر والد عنقاء أن ابنته كانت عند مذود الليلة الماضية و أنها هي من طبخت له العشاء. بعد ذلك قرر والد عنقاء (مشعان الفهد) منع ابنته من الذهاب إلى الجبل و إحضار علف المواشي وأوكل المهمة لأخيها (عبد الله)، وافق (مشعان) على تزويجها من ابن عمها (حماد) الذي طلب يدها قبل عدة أشهر. أراد بذلك مشعان إنهاء كلام الآخرين أمثال حميدان و الانفكاك من تحمل مسؤوليتها فالأب يشعر بثقل المسؤولية الأخلاقية بالنسبة للبنت حتى يتم نقل المسؤولية إلى الزوج. زوجت عنقاء من ابن عمها حماد

وانتهت أحلامها وجمدت ذكرياتها وأصبحت تردد قول الشاعرة التي مرت بتجربة شبيهة بتجربتها:-

اللي يبينا عيت النفس تبغيه *** واللي نبي عجز البخت لا يجيبه.

لم يكسب الراعي حميدان شيئا غير أنه حرم وحطم قلبين دون أن يدرك هو شيئا من ذلك، فدوره الشيطاني أثر كثيرا على مذود الذي ظل متماسكا ولم يشاهدها طيلة السنتين اللتين تلتا الزواج عدا الليلة التي سبقت ليلة الزواج. كانت ليلة منتصف الشهر؛ إنها ليلة فريدة من نوعها في حياة مذود، لها تضاريس ومناخ خاص بها ظلت في ذاكرته مطمورة طيلة حياته دون أن يتحدث عنها، إنها سحابة صيف أنزلت ماءها وانتهت. قد يكون هناك نبات خاص بهذه السحابة الممطرة ينمو ويصبح شجرة مثمرة. إنه رجل يزرع الخير ويتركه دون أن يأخذ مقابلاً له وهذا هو سر إعجاب عنقاء الشديد به. إنها أيضا امرأة طيبة وعاقلة منذ صغرها.

وصل الخال فلاح إلى دار مذود ومعه كمية من السمن العربي واللبن المجفف وتيسان. أخبره أن أغنامه تضاعفت ثلاث مرات وأنه قد باع منها كبار السن على جار له في البادية بنفس السعر الذي دفعه له

مذود من قبل. أصبحت الأغنام التي يملكها مذود تتجاوز مائتي رأس، كلها صغيرة السن على وشك التكاثر هذا العام. أصبح الآن لدى مذود مبلغ من المال يستطيع من خلاله السفر إلى العراق للبحث عن والده الذي طالت فترة غيابه. بدأ يفكر بجد في رحلة البحث عن والده وظل معتكفا لمدة ثلاثة أيام لم يذهب خلالها إلى الكهف. إنه يجهز نفسه لرحلة قد تطول بعض الشيء قد يرجع منها سالما وقد لا يرجع كما حصل لوالده من قبل، إلا أن إصراره على الذهاب وتفاؤله بوجوده عجل من اتخاذ قرار الرحيل على الرغم من تحسن أحواله المالية.

(6)

نصف جسد

ذهب مذود إلى المدينة للبحث عن قافلة متجهة إلى العراق للانضمام إليها، فوجد ما يبحث عنه. ركب مع أشخاص آخرين على عدة جمال بعضها محمل بصناديق مقفلة. كان أحد المسافرين السيد طارش الذي تعرف إليه مذود في غرفة التوقيف التي كان يحرسها عندما كان رجل دولة. أراد طارش أن يمسح الصورة القديمة المعروفة عنه عند جيرانه ويفتح له ملفا جديدا في مكان آخر يتصف فيه ملفه بالنظافة من أي اتهام في إيذاء الآخرين فهو من الداخل يكره الأذية بشكل عام سواء للإنسان أم للحيوان. فقرار سفره جاء بعد شكوى جيرانه منه، وجلده مئة جلدة نتيجة لاتهامهم له بأنه يملك عيناً قوية.

فرح مذود بوجود طارش ولم يهتم أبدا بقضية العين القوية لأنه غير مقتنع بما يسمعه عن العين حتى يشاهدها حقيقة؛ لأن أكثر الناس ينقلون كلمة تقال دون الإتيان بشواهد حية.

تحركت القافلة من المدينة بعد يومين من وصول مذود متجهة إلى العراق، كان الجو يميل إلى البرودة إلا أنه قد حسب هذا الحساب فلبس ملابس صوفية وفروة اشتراها من المدينة تحسبا لبرودة الطريق. مضى أسبوعان وهم في الطريق والجو صافٍ خالٍ من الغبار والغيوم. بدأ يشح الأكل عليهم، وفي ليلة مذود المقمرة سهر مع القمر وأحس بالجوع، أثناء ذلك شم رائحة قرنفل تفوح من أحد الصناديق. وجد اللحم المتبل بالقرنفل والملح فأطلق العنان ليده إلا أنه اكتفى بقطعة واحدة تسد رمقه تلك الليلة. أصبح كل مساء قبل النوم يأخذ قطعة صغيرة من الصندوق. عندما وصل إلى بغداد وجد نفسه قد أكل نصف الصندوق فتوجه مباشرة إلى قائد الحملة يريد أن يعوضه عن اللحم الذي أكله طيلة الأسبوعين الأخيرين من الرحلة. تفاجأ قائد الحملة، وقال له: إنه ليس لحم حيوان يؤكل، إنها جثة امرأة يراد دفنها في مدينة النجف الأشرف. صعق مذود من كلام الرجل وكاد يقع مغشيا عليه. توجه صاحب الحملة بسؤال لمذود قائلا كيف أتتك الشجاعة لتقدم على أكل جثة أخيك المسلم. فرح طارش أنه لم يأكل مع مذود من لحم الصندوق فقد كان يعرض عليه أن يأكل معه ويقنعه أنه هو من سيدفع قيمة اللحم المجفف، المسألة عند مذود هي

تعويض صاحب الحملة عمّا أكله أو حتى عن الصندوق كاملا على أن يأخذ معه بقية الصندوق.

حدث مذود طارشاً ذات ليلة عن لذة وطيبة هذا اللحم المجفف، وقد كان يشكر من قام بتجفيفه وتتبيله ودعا له بالزواج إن كان عازباً وبالذرية الصالحة إن كان متزوجا.

حقيقة لا يعرف مذود أنها جثة إنسان متبلة، توقع أنها لحم غزال يراد إرساله للعراق. أوقف مذود قائد الحملة وسأله عن اسم المرأة التي أكل نصفها فقال له إنها (فاطمة حسن) امرأة أصابها مرض غريب لا أحد يعرف طبيعة مرضها وتوفيت قبل ثلاثة أشهر تقريبا. تألم مذود كثيرا لأكله نصف امرأة، لو كان رجلا لكانت المصيبة أخف. نصف جسد امرأة تربع داخل أحشائه وذاكرته. هكذا الحياة تعمل بالمقلوب فالمرأة التي أراد أن تلتصق بجسده بعد أن أحبها حرم منها والتصق في داخل جوفه نصف امرأة لا يعرفها.

حاول طارش أن يمازحه وينقله من جو الحزن إلى جو يسوده نوع من المرح، وذلك بعد أن ذكر له بأن هناك رجلا في قديم الزمان قد أكل لحم امرأة وخلال بضعة أشهر انتفخ بطنه وأنجب فيما بعد طفلة بدون

رأس. عرف مذود أن طارشاً يمازحه وشكره على مداعبته البسيطة وقال له:" مضى على رحلتنا أكثر من شهر ونحن ننام ونقوم جميعا لم أشاهد المقدرة الموجودة عندك إلا إذا أردت أن أوظف حادثة جثة المرأة بوصفها نوعاً من النحس الذي أصابني لوجودك معي وهذا لن أفعله لأن ما حدث من عند الله قضاءً وقدرً لست طرفا فيه". نام الصديقان بعد عناء السفر بجانب جدار طويل قريب من محطة الوصول لمدة ساعتين. صارح مذود صديقه طارشاً بأنه شاهد امرأة في منامه تقول له:" كانت روحي بجانب جسدي وأنت تقضمني وكنت أسمع صوت أسنانك تطحن أجزائي كنت أصرخ وبصوت عالٍ إلا أنك لم تسمع ندائي واستغاثتي فكنت استحلفك بالله ألا تفعل ولم تجد في الأمر غرابة وظللت مستمرا في أكلي، فمن حسن حظك وحظي أنك لم تأكل كل جسدي لكيلا تكون روحي مصاحبة لك طول الوقت. أما وضعنا الحالي فروحي ستنتقل مابينك وبين نصفي الآخر. قال: الأهم من هذا هل أنت امرأة شريرة؟ قالت: أنا لست شريرة إنما امرأة صالحة تعلق قلبي في حب الله و الإكثار من الصلاة. المرحلة القادمة ستكون مرحلة مشتركة بيني وبينك، امرأة شيعية ورجل سني. قال: إنك لا تعرفين مدى حبي للإمام علي كرم

الله وجهه وقلبي يتسع للبقية أبي بكر وعمر وعثمان، إنهم كأصابع اليد لا يمكن أن استغني عن أحده ا، إلا إذا أصبح شكل يدي مشوهاً. قالت: إن الإمام علياً من آل البيت. الفرق بيني وبينك أنك تختزلين الخلفاء الراشدين في شخص الإمام علي، قال: أما بالنسبة لي إما أن أقبلهم جميعا أو أكفر بهم. قالت : أنت لا تحب الإمام علي اً. قال: من أين أتيت بهذه النتيجة، إني أحبه حباً لا يقل عن حبك له إن لم يزد عليه، لكن اسمعيني أنت ابنة عقيدتي لن أحاربك أو أكرهك على الرغم من بعض ما أرى من مخالفة، ولكن لن أنظر إلى صغائر الأمور التي لا تخرج المسلم من دينه. قالت: أنت سني تكره الشيعة. قال: جربيني، فالمسألة تحتاج إلى دليل، فلا أرى أن هناك داعياً للمبالغة في وجود كراهية بيننا. قالت: لا تحتاج المسألة إلى دليل، كرهكم لنا واضح. قال لا تستعجلي الأمور فمرحبا بك في الأيام القادمة سنعيش معاً في جسد واحد. قالت: ولكن قد أتعرض للخليفة عمر سلبا. قال لن اسمح لك بفعل ذلك من خلالي، إنه ركن من أركان الدعوة الإسلامية كما هو الإمام علي أيضا، فمثلا هل تفرقين بين الشهادة: ألاً إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وبين الأركان الأخرى مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج إلى بيت الله. الخلفاء

بالنسبة لي مثل هذه الأركان إما أن أقبلهم جميعا أو أتركهم، فقد يكون موقع الإمام علي موقع الشهادة أو الصلاة أو الحج فأنت وشأنك المهم أنهم جميعا أركان. قالت: هناك شيء حدث حال دون أن يصبح الإمام علي خليفة قبل الخليفة عمر. قال: وهل يضيرك لو كان الحج قبل الزكاة في الترتيب؟ إنهم أركان بغض النظر عن ترتيبهم. قالت: هل حزنت لما حدث للحسن والحسين؟ قال: ومن هو السفيه الذي يريد شرا بهما. لكن لن أعذب نفسي أو أحترق على حدث مضى ومرت عليه مئات السنين فالله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يعذب أحداً نفسه من أجل فرد آخر حتى لو كان رسول الأمة. فتقديس الأفراد لا يجوز حتى لو كانوا من آل البيت.

صحا مذود من نومه وهو مذعور ينادي طارشاً . طارش: ما بك؟

مذود: صاحبة الجسد أتتني في منامي وتعاتبني على ما حدث.

- ماذا قالت لك؟

- قلت لها كلاما لا أعرف الآن شيئا منه أجهل تفاصيل ما قلت لها. الشيء الوحيد أنها ستزورني بشكل منظم، يوم زيارة ويوم راحة

- ما العجب في الزيارة؟

- يوم زيارتها سأصلي على الطريقة الشيعية إذا زارتني و تلبستني حالتها واليوم الآخر سأكون سنيا.

- أنت إنسان طيب، يتسع قلبك للمذهبين.

- أيقظني وقت الظهر. أريد أن أنام فنوم البارحة غير كافٍ.

- أخاف عليك منها.

- لا تخف، إنها امرأة مسلمة ومتدينة ولن تؤذيني فأنا أملك نصف جسدها الذي توزع داخل جسمي.

- أرى أن هناك شيئا سيصيبك.

- إني أخاف منك أكثر منها.

- هل أصابتك عيني كي تخاف مني؟

- أمزح معك و أعرف أن خوفك هذا جزء من حبك لي و هذا يعكس حقيقة معدنك الأصيل.

بعد مرور ثلاث ساعات أيقظ طارش مذوداً من نومه، فأدى صلاته على طريقة المذهب السني، ولم يحدث أي تغيير في طريقة أداء الصلاة. أصبح مذود ينتظر قدوم روح فاطمة دون أن يحدث له شيء حتى أنه أوكل المهمة لصديقه طارش بأن يراقب حركاته في الصلاة وفي المساء

شاهد مذود السيدة فاطمة في المنام وقد قال لها: أطلب منك العون والمساعدة لمعرفة أين بطاح الذي أتى لطلب الرزق قبل أن أولد. قالت: إني تحدثت الليلة الماضية مع امرأة شيعية أخبرتها بقصتي معك فقالت إن والدك في ضيافتها و أنه قد تزوجها منذ وصوله إلى العراق وهو شيعي المذهب و أحواله المادية ميسورة لكنه لم يرزق بأطفال منها، إنه يسكن بجوار الأماكن المقدسة. قال: استحلفك بالله دليني عليه سيطالك ثواب من الله. قالت: قد أزورك مستقبلا في قريتك و أخبرك أما الآن فلن أقول لك شيئا.

لا يعرف مذود أوصافا لأبيه أو علامات فارقة يستهدي بها فوالدته لم تزوده بشيء من ذلك خوفا من أن يذهب بنفسه للبحث عن أبيه، لذلك كانت أمه تكتم عنه أي شيء وهو أيضا لم ينتبه لذلك حتى بعد أن قرر السفر. لم يسأل سكان القرية الذين يعرفونه عن أوصافه. فهو لا يملك من المعلومات غير اسمه بطاح الذي أتى إلى العراق قبل عشرين عاما. تعاطف مع قضيته أشخاص عدة، أخذوه هو وصديقه إلى أشخاص قدموا من شبه الجزيرة في الفترة نفسها تقريبا ولم يكن من بينهم أي شخص أتى من المنطقة والقرية نفسها، وعدوه بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم

في البحث عن أبيه الذي أتى من قرية (المستردة) وترك زوجته في الليلة الثانية من زواجه. هناك من نصح مذوداً بالذهاب إلى البوادي المحيطة ببغداد عله يجد من يرشده. عمل بالنصيحة واتجه إلى القبائل هناك وجلس ثلاثة أشهر ينتقل من قبيلة إلى أخرى آملا أن يجده أو يصل إلى خيط رفيع قد يوصله إليه فيما بعد أو يهتدي به بعد ذلك. استسلم لليأس وأخذ يكرر قول الشاعر:

الكون من شفناه ما فيه جنه *** والأرض فيها ريحة من جهنم

طول فترة البحث و طارش ملازم لمذود، يذهب معه إلى كل مكان يحل فيه رافعا يديه في كل صلاة داعيا أن يجد مذود ما أتى من أجله. في هذه المرحلة لم يفكر طارش في قضيته الرئيسة إنما كان منقادا مع مسار البحث عن والد مذود و أحلامه مع السيدة فاطمة.

هدف طارش أن يبحث عن زوجة يستقر عندها و يبني أسرة تغنيه عن أقاربه الذين تخلوا عنه ولم يساعدوه ضد جيرانه الذين تسلطوا عليه وتسببوا في جلده مع إنذاره بالرحيل من الحي الذي يقطنونه وحذروه أيضا بأنه لو تسبب لهم بشيء سيء سيقلعون إحدى عينيه في المرة الأولى ثم العين الأخرى في المرة الثانية.

ظل مذود يقنع السيد طارش أن يرجع معه ويسكن عنده في القرية بعيدا عن جيرانه السابقين إلا أن هذه المحاولة لم تنجح حتى أنه عرض عليه جزءاً من المال والغنم ليشتغل معه في التجارة من أجل تحسين وضعه المالي و الاستقرار بالقرب منه إلا أن قساوة جيران طارش السابقين تجاهه خلقت منه شخصاً صامتاً قليل الكلام عدا كلامه مع صديقه الجديد مذود. فطول الأشهر التي قضاها مع مذود متنقلا بين القبائل في العراق كان صامتاً لا ينطق ببنت شفه قرر مذود العودة إلى قريته وهو مهزوم من الداخل ومر في طريقه على سوق الإبل و اشترى له ذلولاً طيبة حمل عليها ما معه من أغراض، وخاصة مؤونة الأكل واتجه إلى مكان الحملات للذهاب معهم كي لا يضيع في الطريق. هذه المرة لم يذق شيئا من أكل الحملة بل اكتفى بما معه خوفا من أن يجد جثة أخرى يراد دفنها في الأماكن المقدسة.

بعد شهر من بداية الرحلة وصلت القافلة إلى مشارف المدينة وفي أثناء ذلك ودع مذود بقية المسافرين واتجه إلى قريته. يريد أن يرى قريته ويتنفس هواءها ويتسلق جبالها. لا جدال في أن التعب الذي مر به أثناء البحث وقصة فاطمة جعلته يرتمي بأحضان قريته وسكانها ففكرة

البحث مرة ثانية عن والده قد ماتت بمجرد وصوله للقرية. عموما عاش مذود عشر سنوات بعد عودته من الرحلة دون أن يرتبط بامرأة فإن أهم ما يمكن قوله أنه أقفل على قلبه ومشاعره تجاه النساء بعد صدمته الأولى والأخيرة مع عنقاء بأقفال لا يمكن فتحها ورمى المفاتيح بعيدا في أرض رملية قاحلة غير قابلة للحياة.

(7)

شايل والكهف

كان لسلسلة أحداث وقصص مذود جلي الأثر على نفسية شايل حيث أنه ركز على كل شاردة وواردة لأن الأحداث صيغت بشكل درامي من قبل السيدة عنقاء التي أضفت على القصص نوعاً من التفاعل كأنها المنظر الخلفي للصور التي ترويها على ابنها لأنها بذلك تدون بعض الأيام التي عاشتها وقضتها بصحبة مذود وصديقاتها. تعقب شايل سريان القدر الصعب لمذود. قال: إن الأشياء التي يرغبها أو تتوق إليها نفسه لا يستطيع امتلاكها أو تحقيقها، إلا أن آماله التي تحطمت على صخرة قدره القاسي لم تحطمه وظل شامخا كشجرة حتى لفظ أنفاسه في قريته في ليلة قائظة. عنقاء هي شاهد على العصر احتضنت أغلب تفاصيل قصة مذود وتعيش تفاصيل حياة ابنها شايل.

بعد مرور شهر واحد على انتهاء عنقاء من قصّ القصة طلب شايل من الصحيفة التي يعمل فيها إعطاءه إجازة شهر، في ضوء القصة قرر

شايل الذهاب إلى القرية الجبلية التي سكن فيها مذود وهي نفسها التي ولد فيها شايل. طيلة السنوات الماضية كانت القرية ميتة في ذاكرة شايل حتى تم إيقاظها وانتشالها من النسيان من خلال الأحداث الكثيرة التي عاشها مذود و عنقاء. أراد شايل أن تكون القرية والكهف مرحلة جديدة في حياته يسودها الهدوء والارتماء في أحضان الطبيعة ومساهرة القمر كما كان يفعل مذود. أراد أن يقطع كل شرايين العبثية التي قضت على بصيص النهج العقلاني فالعالم كما يراه شايل مقدم على نحر القيم واستبدال سحر السوق المادي بها.

كان شايل يركز على قضية العدل بوصفها قيمة إنسانية مهما كان مصدرها أي أنه مفتون بهذه المفردة التي جعلته يحب ديفيد وبقية اليهود الذين يعترفون بحق الشعب الفلسطيني في السيادة على أرضه. إذاً هو متيم بهذه القيمة الإنسانية مهما كان مصدرها فهو لا يربط الجنس والقرابة والمواطنة بلب الحقيقة.ذهبت عنقاء إلى ابنتها روعه للمكوث عندها حتى تنتهي إعادة أحداث قصة مذود في مخيلة شايل، فهو يريد إعادة رسمها وكتابة السيناريو الخاص بها من واقع طبيعة المكان أو لعل القدر يخبئ له أشياء لم يسمع عنها من قبل.

استمتع شايل طيلة الأسبوع الأول في منطقة لم يشاهد أحدا فيها عدا الهندي ناير الذي يسرح بغنم كفيله سعد الحسين. ولما أتى وقت القيلولة أراح الراعي ناير الغنم في كهف خذوه، انقلبت أحوال الكهف من كونه عامراً بالضيوف إلى كهف تسكنه الأغنام والحشرات.

طلب شايل من الهندي ناير أن ينظف له الكهف مقابل مبلغ من المال. بعد مرور ثلاثة أيام أصبح الكهف جاهزا. أشعل شايل مجموعة كبيرة من سعف النخل أحضرها ناير لقتل الحشرات والأفاعي التي قد تكون داخل هذا الكهف الذي ظل فترة طويلة دون إعمار أو متابعة. فعصره الذهبي قد ولى مع مذود وفتياته. أصبح شايل يجلس في الكهف جل وقته دون أن يجد من يسليه أو يمر من بعيد عدا العامل ناير الذي يسرح بالغنم أسفل الكهف.

بدأ شايل يبعثر كل كلام أمه عن الكهف وصاحبه السابق ويتخيل ذاك الوقت ويستعرض وجوه اً عدة أمامه ، منه ا أمه عنقاء التي كانت ترغب في الزواج من مذود وكادت الأمور تتم لولا خبث الراعي حميدان. حتى الطيور والحيوانات التي كانت تسكن في السابق اختفت

وبشكل كبير لتوافر السلاح القاتل في أيدي الشباب الذين يقتلون الوقت والطيور والحيوانات معا. أعداد قليلة جدا من طيور الحجل وبعض الطيور الصغيرة الحجم موجودة. أما الغزلان والظبا فقد انقطعت بشكل كامل. حياة رحلت بقيمها وفقرها وحلت قيم جديدة تقوم على المادة التي نحرت كل الترابط والروح الجماعية.

وزع مذود نصف أغنامه قبل وفاته على سكان القرية حيث لا يخلو منزل من منازل القرية من رأس أو رأسين، وأوصى بالبقية لشايل بن حماد. كانت عنقاء لا تعرف شيئا عن وصية مذود لأنها قد رحلت واستقرت في المدينة، ولكن قبل وفاته أوصى جاره (سعداً الحسين) كفيل العامل الهندي (ناير) ولم يتوصل شايل إلى معرفة ذلك إلا بعد أن أخذ كمية من الأكل كانت زائدة عنده و أوصلها للعامل الهندي وإذ بكفيله موجود عنده. قدم شايل نفسه للشيخ سعد كبير السن حيث انطلقت أساريره فرحا بتعرفه إلى شايل وحمد الله على ذلك وعلى رد الأمانة لأهلها. شرح سعد أنه بحث عن والدته طول السنوات الماضية وقيل له إنهم رحلوا إلى العاصمة وأنا رجل كبير السن لا أستطيع السفر وكنت أدعو الله ليل نهار أن يصل أحد منكم إليّ وفعلا استجاب الله دعائي. أما

الآن فإن الأغنام التي يسرح بها العامل نابر هي لك وهي جزء يسير حيث بعت منها في السابق أضعافا مضاعفة ومبالغها موجودة لدي. خذها متى ما أردت وأعطيك المبالغ التي بحوزتي.

اتجه شايل إلى منزله وطلب من أمه أن تأتيه في الحال فمنزل أخته لا يبعد كثيرا عن منزله. ذهب شايل إلى الصحيفة ليقابل رئيس التحرير ليخبره أنه اكتفى بإجازة أسبوعين فقط وأنه سيعود إلى عمله من الآن.

تفاجأ شايل بتعين رئيس تحرير جديد يدعى نعمان نور كان يعمل مديراً لتحرير أحدى الصحف المنافسة لصحيفة الإثنين.

شايل: مرحبا بك يا أستاذ نعمان.

نعمان: نحن السابقون وأنتم اللاحقون.

شايل: بعد عمر طويل في هذه المؤسسة.

نعمان: سمعت عنك الكثير وهذا الذي شجعني بقبول رئاسة التحرير لأني أعرف أن هناك شخصاً يتعامل مع الآخرين بكل شفافية واحترام.

شايل: لا تبالغ ما أفعله هو جزء من إيماني الكبير بحب من حولي، إني زدت في مساحة أو هامش الحب في قلبي أكسبني ذلك حب الآخرين وأنت واحد منهم.

نعمان: في الأسبوع الماضي انتهيت من وضع أجندة الصحيفة في الداخل والخارج وأريد أن أعرضها عليك هذا المساء.
شايل: قبل هذا أريد أن أتعرف عليك، أريد أن أخلق جو من الألفة بيننا قبل بداية العمل وأكسر الحاجز النفسي الذي ينتابني مع بداية تعرفي على أي شخص جديد. أنت مدعو عندي هذا المساء.
نعمان: إذا كان هذا يرضيك ويخدم علاقتنا وعملنا فأنا موافق وبشدة.
شايل: أنت لطيف جداً.
نعمان: إني من الأشخاص الذين يبدأوون علاقاتهم ويختمونها بابتسامة. وافقت لك على دعوة المساء لكن دعني أطلعك على أوليات الصحيفة، أني أضع أجندة جديدة لها وخاصة ما يمس الشؤون الخارجية أريد أن أنظم مكاتب الصحيفة في الخارج في الدول التي لها ثقل مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا.
شايل: يوجد مراسلون لنا هناك.
نعمان: أعرف ذلك وأعرف أن للصحيفة مكتباً في واشنطن يوجد فيه أكثر من شخص. أريد أن أعين شخصاً جديداً يشرف على المكتب في الولايات المتحدة. هل تعرف أحداً مناسباً لذلك؟

شايل: أفكر في الأمر وستجد الإجابة مساءً عندما تزورني في المنزل وهذا عنوان منزلي.

في تمام الساعة السابعة مساءً يقرع نعمان باب منزل شايل.

شايل: حياك الله تفضل.

نعمان: منزلك غير بعيد عن الصحيفة.

شايل: هذا هو السبب الذي جعلني استأجره.

نعمان: كيف يحدث ذلك؟ مدير تحرير ومنزله بأجار.

شايل: لا عليك إني أعيش ليومي وسعيد بذلك.

نعمان: هذا ضريبة نظافة اليد واللسان، ولكن سوف أسعى بزيادة مرتبك.

شايل: فلنترك الحديث عن زيادة المرتب وأخبرك بالشخص الذي أتوقع أنه مناسب لإدارة المكتب في واشنطن.

نعمان: تتوقع أنه مناسب! كيف ذلك؟ ألا تعرفه حق المعرفة؟.

شايل: أني أعرفه من ألفه إلى يائه ولكن كيف لي أن أزكي نفسي.

نعمان: إذن أنت! أريدك بجانبي ولا أريد أن أفرط فيك.

شايل: إنها فرصة أريد أن اقتنصها بتعرفي على الشعب الأمريك ي عن قرب. بربك قف بجانبي ولا تخذلني ودعني يوم غد أسلم أوراقي للسفارة

الأمريكية للحصول على تأشيرة الدخول للأراضي الأمريكية فهذا يستغرق حوالي أسبوعين.

نعمان: ليتني لم أفكر في الموضوع ولم أذكره لك.

شايل: تستطيع أن تأتي بمدير التحرير الذي كان يعمل معك سابقاً وأنا أعرفه تمام المعرفة وسأقنعه بذلك.

نعمان: أردت أن تتعرف إليَّ وأبوح لك بما عندي من وجهات نظر خاصة وعامة وأتيت لك هذا المساء وفي جعبتي كثير، والآن أنت تريد الرحيل.

شايل: حدثني عن نفسك.

نعمان: أحدث شخصاً يريد أن يسلم جوازه للسفارة يوم غد؟

شايل: سأبقى معك حتى نهاية هذا الشهر كي أجهز أموري وأنقل الخبر بشكل تدريجي لأمي.

نعمان: حدثني عن أمك التي كتبت عنها بعض القصص.

شايل: علاقتي رائعة مع أمي وأختي لكني لم أجرب علاقة الأخ. هل لك أن تحثني عن علاقتك مع أخوتك؟

نعمان: أنت حرمت من الأخوان وأنا حرمت من الأخوات. هل لك أن تحثني عن أختك؟

شايل: شيء رائع أن يكون لك أخت تنقل لك هموم وقصص النساء وتساعد في ترتيب المنزل.

استمر لقاء نعمان و شايل قرابة ثلاث ساعات لم يتطرق للشؤون العامة ولا سياسات الدول العربية.

دخل شايل إلى غرفة أمه ووجدها على سريرها وقال: طبخك رائع جداً أعجب نعمان وسألني من أي مطعم أحضرت الأكل؟ فقلت أنامل أمي أعدت الطعام.

قالت: أراك فرحاً هل وعدك بزيادة في الراتب؟

قال: إني سعيدٌ جداً ولكن لشيء آخر، إني ذاهبٌ إلى أمريكا لأشرف على مكتب الجريدة هناك.

قالت: أكيد يريد التخلص منك ويبعدك عنه كيلا تنافسه.

قال: لا تظلميه. أنه مُصِر على وجودي هنا. وأنا من رشحت نفسي، إنه حزين يا أماه.

قالت: إن حزنه لا يعادل ذرة من حزني. لن أدعك ترحل.

قال: عندك أختي روعه تسد مكاني حتى أرجع. الفترة التي سأقضيها هناك عدة أشهر أقل من سنه تقريباً.

قالت: لا يسد مكانك أحد.

قال: أطلقي سراحي هذه المرة. لن أسافر مرة أخرى.مرات كثيرة كنت أرفض السفر من أجلك. سأفعلها هذه المرة وسأخالفك الرأي. لم تمنعي روعه من الذهاب إلى أمريكا والآن أنت تقفي في وجهي.

قالت: إني بحاجة إليك الآن أكثر من أي وقت سبق، وروعه ذهبت مع زوجها ولم تذهب بمفردها.

قال: إني متأكد من أنك ستسامحينني بمجرد صعودي إلى الطائرة.

قالت: لن أسامحك ولن يرضى عليك الله لأنك تعصي أمري.

قال: تصبحي على خير.

قالت: وأنت من أهل الخير.

ودع شايل أمه وأخته وغادر إلى الولايات المتحدة وهو يدرك في حقيقة نفسه أن هذه الرحلة ستطول.

وسط حرارة التوديع تساقطت دموع عنقاء وهي تشعر بأنه الوداع الأخير، لن تراه مرة ثانية.

إنه نهار قاتم بالنسبة للسيدة عنقاء التي لا ترى أي بصيص أمل في ضوء قادم، لقد خسرت حبيبها الأول وهاهي الآن تخسر ابنها.

بعد عدة أيام تذكرت السيدة عنقاء الوديعة التي تركها مذود عند السيد سعد الحسين؛ الأغنام ومبالغ الأغنام التي باعها. أصبح إجمالي المبالغ السابقة وقيمة الأغنام أكثر من عشرين ألف دولار سلمها السيد سعد لأم شايل. طلبت عنقاء من فاعل الخير سعد أن يأخذ أتعابه على تربيته للأغنام إلا أنه أخبرها أن ذلك قد حصل. طلبت السيدة عنقاء من ابنتها روعه أن ترسل المبلغ إلى أخيها شايل وتم ذلك فعلاً.

(8)

واشنطن

استقر شايل في إحدى المدن الصغيرة بالقرب من العاصمة واشنطن مركز الثقل السياسي والثقافي العالمي، فهو يستطيع خلال ساعة واحدة أن يصل إلى سفارة بلده والسفارات العربية والأجنبية هناك. اجتمع هناك بمندوب الصحيفة في واشنطن السيد (فالح الأبيض) الذي له علاقات طيبة مع مجموعة من الشخصيات الأمريكية.

أحضر شايل الخطاب الذي أخذه معه من رئيس التحرير الذي ينص على أنه هو من سيرعى شؤون المكتب بالإضافة إلى خدمات السيد فالح. الحلم الكبير لدى شايل هو مقابلة أبطال قصته الحب والحرية الذين تم إسكانهم في مدينة أفلاطون الفاضلة. طلب شايل من زميله (فالح) أن يفعل كل ما في وسعه من أجل الحصول على موعد مع (ديفيد) لعمل لقاء صحفي في أقرب وقت ممكن. جهز شايل مجموعة من الأسئلة ليطرحها على ديفيد حين يقابله.

انتظر شايل أكثر من أسبوعين وفالح يبحث عن عنوان ديفيد و أخيرا حصل على معلومات من مدير مكتب حركة (ناطوري كاراتا) تفيد أن السيد ديفيد سيعود إلى نيويورك بعد أسبوع تقريبا فهو في رحلة خارج الولايات المتحدة. ترك شايل في بلده مجموعة كبيرة من أدواته، ترك موسيقاه وأشرطته التي كان يستمع لها وزيه الوطني وكتبه. يحاول أن يوقف ثقافته عند حد معين لتشكيل ثقافة جديدة تقوم على أدوات ومفردات جديدة يكسبها على مر الأيام. يريد أن يوقف نمو ثقافته التي جمعها طول السنوات الماضية. فهل ينجح شايل في توقيف عقارب ثقافته التي بدأت منذ الصغر.

اتصلت السيدة روعه بأخيها شايل لتطمئن على أخباره، خطفت عنقاء سماعة الهاتف من يد ابنتها روعه.

عنقاء:أهلا بروحي، أنا سامحتك وأريد لك كل التوفيق، أريدك دائماً رافع الرأس شامخ كجبل قريتك.

شايل: الآن أحس بسعادة كبيرة بعد رضائك عليّ فالجنة تحت أقدام الأمهات. هل تحتاجين شيئاً؟

عنقاء: كل ما أرغبه وأريده تحققه لي بعد الله أختك روعه، لا تفكر فينا أمورنا ممتازة وعال العال، قمت بالأمس ببيع منزل القرية والأرض التابعة له وقسمت المبلغ بينك وبين أختك روعه إلا أنها تنازلت عن نصيبها وسترسل المبلغ كاملاً لك.

شايل: أنت و روعه تذكرانني بالمقولة التي تزعم أن البيت الذي لا تفوح منه رائحة الحب أحرى به أن يهدم.

عنقاء: نحن الثلاثة جسد واحد ورأسنا المقرئة فاطمة وديدننا مخافة الله. إن سنحت لك فرصة لزيارتنا في رمضان فلا تبخل علينا. سلم لي على كل من حولك من العرب والمسلمين.

فعّل شايل دور المكتب الصحفي في العاصمة الأمريكية وأعد مجموعة من التقارير الصحفية أرسل بعضها والبقية في المراحل الأخيرة. بدأ فالح يتذمر من وجود شايل لأنه أحس بالغيرة منه، خاصة وهو يرى أن المكتب له دون غيره كانت التقارير في السابق ترسل إلى الصحيفة مذيلة بتوقيع فالح أما بعد مجيء شايل فأغلبها من إعداد شايل ولا يضع اسما تحت التقرير إنما يكتفي باسم مكتب الصحيفة بواشنطن.

إن تعامل شايل مع أمه قبل وفاتها وبعدها يعكس حقيقة أنه بات في حسبانه قطع صلاته مع مجتمعه و الاستعداد للتعامل مع مجتمع جديد يشكل من خلاله ثقافة جديدة يبنيها من تجاربه الجديدة ابتداء من لقائه مع ديفيد.

وضح شايل مدى إعجابه الشديد بديفيد وأهداه نسخة من القصة التي كتبها ونشرها في الصحيفة التي يعمل بها، وشكره أيضا على اللقاء التلفازي الذي تم قبل فترة ليست بالقليلة.

ارتاح ديفيد كثيرا من موقف شايل وخاصة إسكانه ضمن الأشخاص الذين سيعيشون في مدينة أفلاطون الفاضلة. في ضوء ذلك طلب ديفيد من شايل أن يتناول معه طعام الغداء، قبل شايل الدعوة في الحال. أثناء تناول الطعام بدأ شايل يتخيل صورة مذود بناء على الشبه الموجود بين ديفيد ومذود حسب كلام أمه. فحب وتقدير شايل لديفيد ازداد الضعف بعد معرفته بقصة شبه مذود لديفيد إلا أنه في الحقيقة تمنى لو أن مذوداً على قيد الحياة.

رجع شايل إلى مدينة واشنطن مقر عمله وسكناه والفرحة تغمره من رأسه إلى أخمص قدميه. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحا وبمجرد

دخوله إلى شقته اتجه إلى غرفة نومه مباشرة وتمدد على سريره وغطس في النوم. بدأ يشاهد امرأة تدخل مكتب الصحيفة وتسأل عن شايل.

نعم أنا شايل.

قالت:أنا غريس أعمل في مكتب السيد ديفيد وسمعت عن زيارتك لمكتبنا ولم أتمكن من مقابلتك و أتيت بنفسي.

قال : فعلا قبل عدة ساعات كنت هناك وتناولت طعام الغداء معه.

قالت: أعلم كل صغيرة وكبيرة حدثت، أنا المسؤولة عن الشؤون الأمنية للسيد ديفيد.

قال: لماذا تتركينه وتأتين إلي.

قالت: هناك من يقوم عني بالمهمة، أتيت لأقول إني مغرمة بك وأرغب في الزواج منك.

قال: أنا لا أعرف عنك شيئا، ولا أفكر في الزواج حاليا.

قالت: اسأل السيد ديفيد عني وسيخبرك بكل شيء أنا يهودية ومن جماعة ناطوري كاراتا أحببتك لأنك تحب السيد ديفيد من أعماقك و أعجبت أيضا بشخصيتك المتماسكة والقوية أنت شخص قيادي.

قال: لا قيادي و لا يحزنون. أحببت جماعتكم لأنكم أنصفتم قضيتنا أنتم أفضل من غيركم وما فعلتموه هو كلام يريد فعلاً.

قالت: وماذا تريد؟

قال: أريد أن يطفئ العالم أنواره لمدة ساعة، إني أسعى لعمل ذلك، أريد أن أحاصر كل من يقمع هذا الشعب الذي يتعرض لمحرقة و أنتم تشاركوني هذا.

قالت: أوافقك هذا الرأي بشرط أن توافق على الزواج مني.

قال: أنا وافقت ولكن متى نبدأ عرض مشروعنا على جميع شعوب العالم. أريد أن يكون اليوم الأول من شهر أغسطس من عام 2006م هو اليوم الذي نطفئ فيه أنوار منازلنا ونجلس في العتمة لمدة ساعة نريد أن نتضامن مع شعب خذله العالم حتى أقرب المقربين إليه. هناك من استفاد منها وباع أجزاء من القضية، حولوها إلى مفردات وشعارات طنانة عادت عليهم بفوائد جمة والشعب الفلسطيني مذبوح من الوريد إلى الوريد.

قالت: متى نكتب كتابنا؟

قال: في الحال، وقام لفتح جهاز الكمبيوتر و أثناء ذلك انتهت الرؤيا وأحس أن ما حدث هو مجرد تنفيس لما يمر به من تأزم في قضيته مع أمه التي رحلت دون أن يراها وكذلك مشواره الفكري، إنه مشتت يحارب على عدة زوايا، في ضوء ذلك أحس أنه بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة، وبدأ مشوار الراحة بفتح جهاز التلفاز عله يشاهد فيلماً ينسيه رؤياه التي انتهى منها للتو ولكن قدره أكبر من تفكيره، شاهد إعلاناً تلفازياً يتحدث عمن يرغب في تسجيل اسمه لقضاء شهرين بين الأدغال في غابة خارج الولايات المتحدة في جزيرة في البحر الكاريبي و أن هناك جائزة مقدارها مليون دولار لمن يكسب أصواتاً كثيرة في النهاية.

قال: إنها فكرة بديعة تجعلني أقفز فوق مشاكلي وأهرب قليلا من قضيتي، سأكسبهم جميعا ولن أترك الخوف يدخل إلى قلبي ولو قيد أنملة، أمضيت كل فترة شبابي وأنا خاضع لرقابة ذاتية صارمة جعلتني أكسب الآن مناعة قوية ضد حيوانات و حشرات الغابة، لا أتوقع أن هناك أحداً من الذين سيشاركون في المسابقة قد عانى كما عانيت، إن لدغات الحشرات ستخيفهم أما أنا فجلدي كله مليء بلدغات ضميري. الحشرات لن تؤذي جلداً قد خلا من الإحساس إنه جلد ميت. كنت بين نارين، نار

السلطة التي أنتظر قدومها مع كل فجر فهي لا ترحم من يداعبها بشيء من الخشونة تريدك مطاوعاً ومنقاداً وكتاباتك كلها تبريكات ولو أثرت أي تساؤلات حول قضية تصبح فيما بعد أنت القضية وتثار حولك التساؤلات وتخرج في النهاية مسالماً دون قضية على الفطرة أنت مفطوم.النار الثانية نار انتقاد الممارسة الدينية، ينظرون إلى أنفسهم أنهم معصومون لا تثار حولهم الشبهات حتى لو عانقت عنان السماء خطاياهم فكل شيء لهم مغفور مغفور، ليس لهم مشروع متكامل أو استراتيجية دنيوية، وتنظيرهم محدود يطلبون الحرية لهم ويمارسون القهر والاستبداد على غيرهم. تأثرت بظلمهم عندما حكمت علي أمي بالإعدام مع وقف التنفيذ وتركتها تنتحب ولم ألتفت إلى توسلاتها، تشربت ثقافتهم وعدم الغفران وأصبحت مشتت الوجدان يقول رسول الأمة في الحديث القدسي عن رب العزة "يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا وأنت لا تشرك بي شيئاً لأتيَّك بقرابها مغفرة..." أيّ كلام أجمل من ذلك!!؟ هذا يؤكد حقيقة أن الإنسان يقع في مصيدة الأخطاء، لكن رحمة الله ومغفرته أكبر من ذلك بشرط الاستغفار والتوبة. إن الخطأ الكبير والمدمر الذي وقعنا فيه نحن معشر المسلمين هو أننا واقفون رافعون أكفنا ندعو الله أن

يصلح الوالي دون أن نعمل شيئا نخلق فيه مؤسسات مدنية تقوم على العدل والمساواة أمام القانون وأن نجعل السلطة الرابعة شوكة مرتكزة في خاصرة الحكومة فخطب الجُمع تقول اللهم أصلح بطانة الوالي ولا تقول اللهم أصلح الوالي وحده فلو صلح هو لصلحت البقية.أثناء تفكيره في البرنامج والمشاركة فيه رن جرس باب الشقة. نظر من خلال منظار الباب وفتح وصرخ أنتِ روعه.

قالت: نعم قطعت المسافات البعيدة لأشم رائحة أمي فيك، أنت الوحيد المتبقي من عائلتي إن شوقي لك يفوق شوق الحبيبين الذي ينتهي حبهما بشهور أو سنوات أما أنا فحبي لك أطول من أعمارنا جميعا، أنت بالنسبة لي الأمل والطموح والسعادة. إني تبت عن أنانيتي وأصبحت أصدر الحب لمن حولي.

قال: ولكن بعد فوات الأوان بعد أن فقدتِ زوجك الأول وديعاً.

قالت: حدث ذلك قبل أن أصحو من نومي في أحضان ذاتي وأنت من صحاني وأيقظني من نرجسيتي، ألم أقل لك إنك أسطورة حب.؟!

قال: لست أسطورة، بل دال على الحب.

قالت: والدال على الخير كفاعله، أنت رائع طوال الوقت عدا احتكاك الأخير مع أمك.

قال: كنت في حالة احتراق نفسي لا يعلم بها إلا الله. على فكرة عندي مشروع سفر جديد.

قالت: إلى أين؟

قال: إلى الغابة، ولن تطول الفترة، قد أرجع قبل أن أكمل شهرين، وقد تكون عودتي خلال اليوم الأول أو الأسبوع الأول لا أعرف بالضبط وفي حالة انضباطي والتزامي بشروط المسابقة قد أعطى فرصة زيارة قريب لي و أنت الوحيدة التي ستزورني أليس كذلك؟

قالت: أتيت لأزورك و أمكث معك فترة الصيف و أنت تهرب مني.

قال: كل شيء قد تم وعيب علي أن أنسحب من الرحلة، لكن ستشاهدينني من خلال كمرات التلفاز.

(9)

رحلة الأدغال

سافر جميع أفراد الرحلة إلى الجزيرة المخصصة لسكناهم مدة شهرين لمن يحالفهم الحظ. لم يكتف شايل بمعرفة و إدراك الهدف البسيط من هذه الرحلة. يرى أن هناك هدفاً منسياً في فكرة هذه الرحلة هو الأهم و أنه هو ورفاق الرحلة سيكتشفون ذلك خلال ليالي الغابة القادمة. صمم شايل على ألاّ يكون على الهامش إنما في بؤرة الحدث وأن أيام الرحلة سيترجمها إلى مشاعر أقوى من أن يكون هدف الواحد الحصول على الجائزة في الأخير. يريد أن يرسم لهذه الرحلة أطراً تنقلب بعدها إلى رحلة تحمل قيماً إنسانية في أول لقاء له مع أفراد الرحلة، حدثهم عن إعجابه الشديد بالفيلم الأمريكي"سيد الخواتم" كأنه يريد أن يوصل رسالة إليهم مفادها أن الولايات المتحدة دولة شريرة و أن هذا الفيلم شذ عن القاعدة التي تنتهج في الأفلام الأخرى. عموما لعل خطوته هذه تقربه من قلوب المعجبين بهذا الفيلم وخاصة الشاب مايك الذي يكن هو أيضا

إعجابا شديدا بهذا الفيلم. في أول ليلة لهم في الغابة كان الخوف يساور الجميع ونتيجة لذلك اقترح مايك أن يوقدوا نارا ويتجمعوا حولها ليتجاذبوا أطراف الحديث وليكسروا حاجز الخوف وليتعارفوا تعارف المجبرين عليه"فأخوك مجبر لا بطل". عددهم خمسة عشر فردا ست بنات والبقية شباب.

اقترحت إحداهن وهي (جولي) لتسهيل عملية التعارف وحفظ الأسماء أن يتحول كل واحد منهم إلى رقم من واحد إلى الخامس عشر. اختطف الجميع الأرقام باستثناء شايل الذي لم يختر رقماً، لكن الجميع تركوا له رقم 13 إنهم يتشاءمون من هذا الرقم فثقافتهم الأمريكية أمدتهم بذلك؛ لذا كان على شايل أن يصبح هو الرقم المشؤوم إلا أنه لا يعير ذلك اهتماما.

قال(13): كل الأرقام عندي جميلة عدا رقم 41 أتعرفون لماذا؟

قالت(4): نعم، إنه عمرك الآن وتكره دخول سن الخمسينيات.

قال(13): هاجس العمر لا يخيفني و أعرف أني مؤقت سأرحل عاجلا أم آجلا. إني أتحدى الجميع لمعرفة السبب.

قال(9): ماذا تعطيني لو عرفت؟

قال(13): أعطيك نصيبي من الوجبة القادمة.
قال(9): أنا موافق.
قال(13): صار لكم أكثر من ساعتين ولم تعرفوا السبب ذكرتم أكثر من عشرين سببا ولم يكن واحدا منها.
قالت(3): إنه رقم تسبب في وفاة المرأة التي أحببتها فالسيارة التي دهست حبيبتك تحمل رقم (41).
قال(13): توقعك غير صحيح.
صرخ رقم (14) وقال: عرفت السبب وأراهنكم جميعا مقابل جميع وجباتكم، لقد أخذت مادة في الجامعة عن الأديان وكان بحثي عن القواعد المنظمة للفرد المسلم وعرفت أن هناك بعض العقوبات لمن يتجاوز بعض المحاذير و أكيد أنك ارتكبت بعض الأخطاء ووقع عليك عقاب شديد وجلدت 41 جلدة ومن ذلك الوقت صرت تكره هذا الرقم.
قالت (5): هذا هو عدد آبار النفط التي تملكها ويمكن أنها جفت جميعا أو ذهبت مع الريح في نادي قمار في أوروبا أو في الولايات المتحدة. إن عدد سكان مدنكم يتماهى مع عدد آباركم البترولية.

قال (13): توقعاتك بعيدة تمام البعد عن حقيقة رقمي المش ؤوم إلا أنك ذكرت حقيقة مفادها أن النفط الخليجي قد أثر على سلوكيات سكان المدن الخليجية. كنا في السابق نعيش حياة مذود بطاح، أعرف أنكم لا تعرفونه لكن الرحالة والمستشرقين الغربيين كتبوا عنه وعن أمثاله من البدو، كتبوا عن حياة البسطاء من البشر كبساط ة الهنود الحمر في الولايات المتحدة.

قالت (5): انتم بحاج ة إلى من يأخذ بيدكم ويوقفكم على بداية طريق الحضارة الغربية التي يقودها العلم والعقل أنتم متخلفون وستموتون وأنتم عالة على غيركم.

قال(13): لا يوجد بعد أخلاقي لحضارتكم الرأسمالية فالبروتستانتية الجديدة تؤمن بأن الإنسان شرير بطبيعته ولا يمكن اجتثاث جذور الخطيئة من نفسه ولا يمكن أن يحقق وصايا المسيح الأخلاقية وفي ضوء ذلك فالإنسان يبحث عن مصالحه الدنيوية بأنانية كبيرة أي أن الأخلاق الأصيلة مثل المحبة والعفو والعدالة المطلقة لا مكان لها إلا في عبادة الرب، فهناك قاسم مشترك بين البروتستانتية الجديدة ودعاة اللاعقلانية الذين ينطلقون من نفي وجود أي قوانين عامة في الأخلاق، ومن هنا

يأتي القول بأن العقل والعلم اللذين ليس لهما إلا رصد العام في الظواهر المتنوعة، يتعذر إطلاق تطبيقهما في الميدان الأخلاقي.

قالت (5): إن ما ذكرته عن البروتستانتية الجديدة واللاعقلانية هو حقيقة الطرح الوجودي الذي كان يتزعمه (نيتشه) والفينومينولوجي (هوسرل) وآخرون حيث تشكل هذا الفكر في العشرينيات من القرن العشرين بألمانيا ومن ثم في فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية وفي الوقت الحاضر تروج أفكار الوجودية في الولايات المتحدة.

قال(13): يبدو أنك مهتمة بشؤون العقل والفكر.

قالت(5): منذ الصغر وأنا اقرأ عن العقل وكنت معجبة بالمفكر الفرنسي (كامو) الذي قاد التمرد ضد العبث الكوني. هذا التمرد الذي رأى فيه أساس الوجود البشري الأصيل والأخلاق الحقة، ولكن تمرد كامو يقتصر على ميدان الروح والفكر الأخلاقي. يرى أن التمرد الخارجي والنضال النشيط لا يتفقان مع الوجود البشري الأصيل وكان ذلك في حقيقة الأمر دعوة إلى عدم مقاومة الشر حيث يقول إن الإنسان لا يستأصل الشر و إنما يطببه ، ويذهب كامو إلى أن أرفع أشكال السعادة هو تضامن كل الناس وتجاوبهم بعضهم مع بعض.

قال(13): إن ما قاله كامو هو لغز التعامل مع المتطرفين، فهناك أشخاص لا يؤمنون باستخدام العنف معهم، ويحتاجون معالجة ومحاورة الأفكار التي يحملونها لترويضها وإدخال أفكار جديدة لتطوير وتعديل المرتكزات التي فهموها وحللوها من خلال وجود الليبرالية الأمريكية الجديدة التي تحاول أن تجتاح أسواق العالم اقتصاديا وحدود الدول سياسيا.

قال(12): إن رقمك المشؤوم أدخلنا في عمق الفكر والعقل ونحن أتينا هنا للبحث عن الجائزة من خلال الصبر على متاعب الغابة والتحلي بالشجاعة، لم نأت لسماع محاضرات عن الأخلاق، أعذروني أريد أن أرتب فراشي لأنام لأني منهك تماما، تصبحون على خير.

قال(13): إني لا أحاول أن أبخس حضارتكم وثقافتكم حقها من التحرر إلا أن الحرية لا تتعارض مع القيم الإنسانية فقيمة الحرية بجوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لا تتعارض مع العقلانية. إننا العرب في وضع لا نحسد عليه، علينا أن نعيش تحت مظلة أحد المركزين الأوروبي أو الأمريكي لأنه لا يوجد مركز ثالث في العالم. و الأقرب إلى موقعنا من هذا الوضع الاضطراري الانضمام أو التثاقف

مع الثقافة الأوروبية لتنوعها و إيمانها بخط عولمة الثقافة بدلا من ثقافة العولمة الخاضعة للمركز الأمريكي. إن أوروبا بلد الفلاسفة والمعرفة لا بلد البطش والقوة كما تفعل الولايات المتحدة. في هذا الوقت من الصعوبة إخراج ذاتنا عن ذوات الآخرين والعيش بمعزل، والصعوبة الأكبر أن نخرج من ذلك دون خسارة. إن ثقافتنا العربية الشبيهة بثقافة النمل التي تعمل على الأكل دون أن يكون لها أعمال أخرى، تكون حركتها الدؤوبة والصبورة من أجل لقمة العيش.

قالت (5): ألا تلاحظ أننا ندور حول السياسة ولم نخرج من هيمنتها.

قال (13) فعلاً أنت محقة. الشأن العام أخذ وقتاً طويلاً من نقاشاتنا، دعيني اتجه إلى الصعيد الخاص وأطرح هذا السؤال: هل اشتقت إلى عائلتك؟ إلى أطفالك إذا كان لديك أطفال، فأنت مكثتي أكثر من عشرة أيام تصارعين الجوع والخوف.

قالت (5): اعتدت عليكم منذ أن ركبنا السفينة متجهين إلى الجزيرة، التنوع في مشاربنا أعطانا نوعاً من التجديد وكسر الملل. أمّا بالنسبة للإجابة عن سؤالك هل لدي أطفال؟ أجيبك بأني كنت متزوجة ولكن لم ننجب حتى تم الطلاق.

قال (9): مازال الوقت مبكراً جداً كي تحكمي علينا جميعاً وهناك ساعات وأيام متبقية حتى يتم إنجاز المهمة وستتشاهدين قبل ذلك التآمر ضد البعض وأن كل واحد يفكر بما يخدم مصلحته حتى لو مد يده للشيطان من أجل المليون دولار.

قال (13): دعونا من الحديث في موضوع التآمر والمليون دولار. فالمال ليس غايتي إنما أتفق معها في قضية التعرف على بعض واستعراض بعض من ثقافاتنا المتعددة، كم كنت أبذل من الجهد مع أصدقائي لنجتمع في الصحراء حول النار ونبدأ في مناقشة تصرفاتنا بنوع من المكاشفة بالشؤون الخاصة والعامة فهناك من يعجب بطريقة المكاشفة وهناك من يرفضها خوفاً من عواقب الأمور خاصة في الشؤون العامة.

قالت (5): رغم ما تتمتع به من جرأة في الحديث عن الشؤون العامة إلا أني سأكون أشد جرأة منك في الشؤون الخاصة سأتحدث عن كل جزئية في حياتي الخاصة. إني امرأة أؤمن بالحظ أو بالأصح بالأبراج فهناك أشخاص تخدمهم حظوظهم ويخدمهم حتى أعداؤهم. فعلى سبيل المثال

أرى أن الرجل المحظوظ رقم واحد في العالم هو الرئيس جورج بوش الابن، إنه ضعيف جداً كدت أفقد صوابي عندما فاز بولاية ثانية.

قال (13): عدنا إلى السياسة مرة ثانية.

قالت (5): إني أتحدث عن الأبراج والرئيس بوش مدخل للحديث عن علاقتي الزوجية عن طبيعة برج العذراء الذي هو برجي وزوجي السابق من برج الأسد.

قال (13): أنا لا أومن بما تقوله الأبراج على الإطلاق. رغم عمق إدراكك وطرحك العقلاني كيف خسرتي زوجك؟

قالت (5): بفضل أحد الأصدقاء الذي أهداني كتاباً عن الأبراج أدركت حقيقة أنه من الأفضل لأي فرد أن يعرف برج من سيرتبط به قبل فوات الأوان لأن لكل برج صفات تختلف مع أبراج أخرى أو قد تتوافق مع بعضها الآخر.

قال (13): أين دور الثقافة والمعرفة والدين؟

قالت (5): إني أتحدث عن الانسجام أو التقارب الروحي. على سبيل المثال أنت من أي برج؟

قال (13): لا أعرف، إني ولدت في أواخر شهر 11.

قالت (5): أنت من برج القوس.
قال (13): وما صفات رجل القوس؟
قالت (5): إنه صريح ومتحرر ولا يحب المكر والخداع، لطيف المعشر، ودود، ولا يحب أن يضر الناس. صراحته الشديدة قد تسيء إلى الآخرين، فهو يبدي رأيه دون الأخذ بما ينتج عن ذلك. إنه غير حاذق في تلفيق الأمور. هو طائر مغرد يفضل الحرية دائماً. يكره أشد ما يكر ه الكذب. إنسان جريء، محب، طموح، محب ومنفتح و إن كان يقوم بأعمال جنونية بعض الأحيان. لكن قل يا شايل هل صفات برج القوس تنطبق عليك؟
رقم (13): كيف عرفت كل هذه الصفات عني، إني في ورطة، فجميع الصفات موجودة داخل دمي وعقلي، لا أريد أن أومن بالأبراج.
قالت (5): ليست هذه الصفات من مخيلتي إنما هي صفات رجل القوس، لقد قرأت الكثير والكثير عن الأبراج و أستطيع أن أذكر كل صفات الأبراج، لقد حفظتها. سنوات عديدة و أنا أتابع الأبراج. وتسبب عدم الانسجام بين برجينا بالطلاق. إني من مواليد برج العذراء وهو كما ذكرت من مواليد برج الأسد. إنها العلاقة المتنافرة بين قطبين فالصفات

المشتركة بينهما متدنية جداً، بالرغم من أن أحدهما قد يؤثر في الآخر. فالأسد قد يعجب بالمرأة العذراء بمظهرها قبل أن يعرف ما تتصف به من سخرية لاذعة وقاسية. إنها بالرغم من إعجابها به فهي لا تهتم بعواطفه ولا كبريائه. فنسبة النجاح قد تصل إلى 25٪.

قال (13): إني أوافقك مئة بالمئة واختلف معك أيضا. لقد قال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قبل ألف و أربعمئة سنة: " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف...".

قالت (5): إذاً نبيكم يؤمن بالأبراج، هذا شيء عظيم أن يدرك قوة وعظمة الطبيعة في خلق الإنسان وتكوين حظوظه.

قال (13): لا تستعجلي وتستبقي الأحداث إنه رقم صعب في معادلة دور الطبيعة، إنه يلغي وجودها وعظمتها في مدى تأثيرها على وجود الإنسان، إنه لا يؤمن بنظرية النشوء و الارتقاء التي يؤمن بها بعضكم وقد تؤمنين أنت بها.

قالت (5): ومن قال لك أني أومن بشيء؟ إني أعيش لحظتي وبصري لا يتعدى أنفي في هذه المسائل الغيبية.

قال (13): لو قرأتِ القرآن لعرفتِ عظمة الله عندما خلق الإنسان من نطفة ثم مضغة ثم علقة ثم ... الخ، وفي هذا السياق سأرجعك إلى مرجع لطبيب كندي يدرِّس في إحدى الجامعات الكندية لا يحضرني اسمه الآن إنما طلب من طلبته الرجوع إلى القرآن لتوضيح كيفية تكون وخلق الإنسان. وقال هذا شيء عظيم أن يتحدث شخص أمي لا يقرأ ولا يكتب عن تطور الإنسان قبل حوالي ألف وأربعمئة سنة.

قالت (5): أنت شخص ذكي تريد استدراجي إلى الإسلام وهذا غير ممكن.

قال (13): أقسم بالله إني لا أسعى لذلك ولا أريدك أن تسلمي، ليست غايتي أو طموحي أن يزداد عدد المسلمين فردا أو عدة ملايين إنما يسعدني فقط أن تفهميني وتفهمي حقيقة الإعجاز في القرآن كجزء من فهم قضية الوجود اللغز أو السؤال الذي حير المفكرون والفلاسفة والمثقفين إلى وقتنا الحاضر. إنها قضية البحث عن الحقيقة التي لا يستطيع فردٌ أو مؤسسة إدراكها. فلا الأديان أدركتها كحقيقة معاشة ولا المفكرين والفلاسفة أدركوا النقيض، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه كل يوم: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك". عزيزتي كي

تفهمي صدق مشاعري إني أريد انقاص عدد المسلمين، أريد أن أخرج منهم كل من ينادي بالدكتاتورية والعنف وسفك الدماء كما تفعله الرأسمالية الجشعة، أؤمن بكل جوارحي بأدوات المجتمع المدني التي تحترم الإنسان وترفع من قيمته المادية والمعنوية. فلا تتوقعي إني بمجرد دفاعي أو ذكري لأي موضوع من زاوية دينية أقوم بنوع من الدعاية و إنما فقط ذكرٌ لقناعتي الخاصة في موقع مناسبتها.

قالت (5): لكنك لم تشرح لي أو بالأصح لنا كيف تكون الأرواح جنود مجندة؟

قال: حسب تفسيري البسيط لظاهر النص أن هناك أسباب قبول وتنافر مثل زعمك أن توافق الأبراج سبب لنجاح العلاقة الزوجية. فالرسول يوافق على سبب التوافق الروحي إلا أنه لا يعزوه إلى الأبراج إنما قد تكون لأسباب غيبية نحن نجهلها وقد يكون ذلك لأسباب معروفة ومدركة مثل شخصية الفرد "الكارزما" وعوامل أخرى كالعوامل الوراثية تصب في قدرة الخالق الأوحد للكون بما في ذلك النجوم.

أمضى رقم (1) قرابة عشرة أيام وهو منهمك في كتابة رواية تدور حول مجموعة من القصص التي نسجتها مخيلته يزعم أنها ممكنة

الحدوث في الأرجنتين بلده الأم. في المساء يرتب أحداث الرواية وفي الصباح يكتبها. أدرك رقم (1) أنه بحاجة إلى أن يعرض ماكتبه على أحد المشاركين ووقع اختياره على رقم (5) جولي أو رقم (13) شايل واستقر رأيه في الأخير على أن يعرض ماكتب على جولي. اعتذرت جولي بأدب وقالت: إني لست ناقدة ويا حبذ ا لو تقرأ ما كتبته على الجميع.

رقم (1) وعدها أن يقرأ ما كتب عليهم في مساء الغد. استمرت قراءة الرواية ثلاث ساعات متواصلة والجميع منصت لما يقوله. لم يعلق أحد على الرواية الأرجنتينية عدا شايل الذي وعده بكتابة نقد سريع للرواية في الغد بعد أن يسلمه النص. قرأ شايل رواية (كامبس) وجهز ملاحظاته كي يعلنها في المساء أمام الجميع تلبية لطلب الكاتب نفسه.

شايل: إن مشروعك الروائي شبه خالٍ من اللغة الشعرية وبعض القيم الفنية. إن النص يشكو من هشاشة في الطرح الفلسفي والفكري فحجم الرواية والسيطرة على الشخوص غير كافيين في إحداث وخلق إعجاب لدى القارئ الفطن الذي يحترف قراءة الروايات العالمية. إنك دمجت

ثلاث مراحل في رواية واحدة. فحسب تقسيمات أرسطو الثلاثة للمسرح إما أن يكون أفضل من عالم التجربة أو أسوأ منه أو مساوياً له.

كامبس: ما العيب في أن تكون المراحل الثلاثة في رواية واحدة؟ إني قسمت روايتي إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول انصب على تعرية المجتمع والحديث عن مرض الكذب المنتشر في دماء معظم الجماهير من أطفال وآباء ومؤسسات. ويتحدث الجزء الثاني عن قصة حب رومانسية جميلة تلين صرامة وقساوة الجزء الأول. والجزء الأخير عبارة عن خلط للبعدين الأولين لنصل إلى التقسيم الثالث الذي تكون فيه الرواية مساوية لعالم التجربة.

شايل: ليست الرواية طرحا أكاديمياً كما فعلت إنما هي لحدث ينمو حتى يصل إلى الخاتمة من خلال تناسق وتطور الأحداث. أنصحك بقراءة العديد من الروايات كي تنضج روائياً إن أردت أن تصبح كاتباً مرموقاً. إنك تستخدم القلم السينمائي الذي يقتصر على سطح الأشياء دون الدخول في العمق والحصول على دفء الأحاسيس والمشاعر.

كامبس: إن طرحي خال تماماً من الأدلجة والتسييس، فالرواية تقوم على تفجير العلاقات الإنسانية فيما بينها وبين الأشياء خارجها. اختلف مع

الذين يظهرون حصيلتهم الكبيرة من المفردات اللغوية دون التركيز على طريقة المعالجة وابتكار الأفكار والمواضيع والحجج، إنهم خارج دائرة الإبداع يتقوقعون في زاوية الأسلوب وعلوم اللغة.

جولي: هل تسمحون لي بالتعليق؟

كامبس: بكل رحابة صدر نعم.

جولي: إني أتفق مع شايل في كل ما ذكر ه وخاصة عندما وصف قلمك بأنه قلم سينمائي صور ما يوجد على جسم الإنسان دون سبر غور نفسه. هناك عديد من الكتاب الأرجنتينين أعرض عملك هذا على واحد منهم.

خرج رقم (14) من صمته وقال: إن لغتي الشعرية ممتازة فهل تنصحونني بامتهان كتابة الرواية ودخول عالم الشهرة.

شايل: اللغة الشعرية ركيزة أساسية في كتابة الرواية إذا تزامنت مع خيال واسع وطرح فلسفي.

قال رقم (14): مهلك إني أنسحب الآن، لا يوجد لدي أي طرح فكري أو فلسفي. أترك المجال لغيري للمشاركة، لكن على فكرة هل تشتري مني يا كامبس لغتي الشعرية بوجباتك القادمة. سأمطرك بكم هائل من المفردات والصور الشعرية.

قالت جولي: اطلعت على دراسة قامت بها وكالة فيدرالية أمريكية ثقافية من أجل دراسة تطور التقاليد والعادات الثقافية في الولايات المتحدة، وكان عنوان الدراسة "القراءة في خطر" فهناك تراجع في قراءة الأدب لدى جميع فئات الأعمار ويشكل هذا التراجع قلقاً لدى ملاك دور النشر، وبينت الدراسة أيضا أن نسبة القراء الأمريكيين تأتي في مرتبة أدنى من نسبتهم في كندا والدول الأوربية.

قال شايل: بالرغم من تدني نسبة القراءة عندكم إلا أنها شيء عظيم مقارنة بعدد القراء في الدول العربية لكن قد نتفوق عليكم في عدد قراء الكتب الدينية لأن كل من يفعل ذلك يريد أن يتحول إلى داعية وواعظ.

قالت جولي: إن حديثنا بالأمس كان عن أحاديث لرسولكم محمد.

قال شايل: إني حدثتك عن موقف الرسول محمد عليه الصلاة والسلام من الأبراج وكان له رأي أومن به. إني ذكرت ذلك للاستشهاد عن تآلف الأرواح أو الأنفس لكن هل سمعتي مني أي مطالبة لأحدكم باعتناق الإسلام؟ أعدادنا نحن المسلمين كافية. قرأت في بحث للدكتور (ريموند بارنوود) أخصائي علم الوراثة بولاية ميريلاند الأمريكية يقول" نحن

جميعاً لدينا اعتقاد في وجود قوة مهيمنة وهو اعتقاد إيماني مبرمج في نظامنا الجيني وشفراتنا الوراثية" .

ويزعم خبراء آخرون إن الجينة الوراثية المسؤولة عن التدين و إيمان الإنسان بربه مرتبطة بجهاز المناعة لدينا، ومربوطة معه على نحو يساعد أجسامنا من مداواة أسقامها وعلاج جراحها.

وهذا يعزز ما ذكره الرسول الكريم بأن الإنسان مولود على الفطرة.

قالت جولي: مازلت أذكر كلامك السابق وأعرف موقفك. لكن على فكرة ما النشاط الذي سنقوم به في يوم غد؟

قالت رقم (2): نريد أن نقوم بصيد السمك، اشتقت كثيراً لأكله.

تفرق الجميع وكل ذهب إلى فراشه على أمل القيام في الصباح الباكر لجمع وجبة الغداء.

(10)

مذكرات شايل

بدأت الدكتورة روعه بتنظيم الروايات النسوية التي أحضرتها معها للولايات المتحدة لعمل الدراسة الأكاديمية لتقيس من خلالها عدة متغيرات رئيسة مثل المتغير السياسي والديني والاجتماعي. إنها تتسلى في كتابة خاتمة الدراسة لكسر عزلتها ووحدانيتها في الشقة فهي في انتظار عودة أخيها. وقفت السيدة روعه عند رواية "المفتاح الكبير" للروائية (هياء السعدي)، التي تدور أحداثها حول مفتاح خاص غريب في شكله ونوعه، كبير جدا يفتح أقفالاً عديدة من الوزارات، يؤتى به في حالة الأزمات وقلة الموارد، كأنه مضاد حيوي لتقوية المناعة. المفتاح – والحقيقة تقال- نظيفٌ جداً لا يوجد عليه أي غبار أو فساد في محتواه، شبيه بنظافة جمجمة طفل خلق على الفطرة. أرادت كاتبة هذه الرواية السيدة هياء أن ترسل رسالة مفادها أن الرقابة الذاتية قوية جدا لدى الروائيات وخاصة من خلال المتغير السياسي، لذلك اختطت طريق

الرمزية لتمر روايتها على الرقيب ليتم فسحها. إنها تقرأ ما كتبت بعين الرقيب المتصلة بالسلطة لا بعين الحقيقة أو الإبداع.

قبل كتابة آخر سطر في خاتمة الدراسة قرع جرس الباب و إذ بالطارق شايل.

قال: إني فكرت بك كثيرا طيلة الأسبوعين الماضيين، حاولت ألا أتقيد بضوابط المسابقة كي أعود إليك مسرعاً وتم ما عملت من أجله على الرغم من إصرار الزملاء على أن أطيل مكوثي معهم. فالجائزة ليست غايتي ولن تأتي أصلا فهي لن تمنح لشخص عربي، وهناك أشخاص من دول عدة. أخذت العملية نوعاً من التغيير والتثاقف مع الآخرين. مكثا حوالي الساعتين وهما يتجاذبان أطراف الحديث وأخيراً قالت: إني ذاهبة غدا إلى الجامعة لمقابلة مرشدي السابق الدكتور (تشوفاك) هل تذهب معي؟

قال: نعم.

إنه يعرف كثير اً عن الدكتور (تشوفاك) الذي يدرس اللغة العربية في جامعة شيكاغو الأمريكية. في الصباح الباكر اتجه الاثنان إلى كافتيريا الجامعة لتناول وجبة الإفطار ومن ثم توجها إلى محاضرة

البروفسور التي تبدأ في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً. إنه مستشرق يعرف تفاصيل التفاصيل عن المدينة العربية التي كتب عنها ، وكذلك يلم بتفاصيل التفاصيل عن مفردات ومعاني عربية كثيرة. أبهر الدكتور تشوفاك السيد شايل، وفي زمن الأسئلة طرح شايل السؤال التالي:

عزيزي البروفسور تشوفاك نعرف أنك سبرت غور اللغة العربية وأحطت بجوانبها كما تحيط البحار بالجزر وتحدثت قبل قليل عن مفردة " حنين" و أدهشت الحاضرين بإلمامك بالمفردة وأصولها وفي ضوء ذلك هل اللغة العربية استطاعت أن تسحب قدميك إلى فخ الثقافة العربية وبدأت تتقمص دور المثقف العربي وتدافع عن قضايا وهموم الأمة العربية أم أن الثقافة العربية عجزت عن جر قدميك لأنها لا تستحق الدخول في غياهبها والاكتفاء بالتمحور حول الأدب؟

البروفسور: أسمح لي أن أقول لك إن تركيزي انصب على دراسة المحور الأدبي من قصائد ومفردات لغوية بالإضافة إلى فهم أدوات اللغة العربية كتابة وحديثا، أما مسألة الإعجاب أو الرفض للثقافة العربية فلم تخطر لي ببال. وقد يكون لذلك عدة أسباب منها أن الثقافة الأمريكية لم تعط الفرصة لي قط فقد أقفلت علي جميع منافذ الإعجاب بثقافات

الشعوب الأخرى. والسبب الثاني أن الثقافة العربية ثقافة الألم فهي غير منتجة لا تبني حضارة حالية إنما تتغنى وتجتر الماضي، فالشعوب العربية لم تصل إلى الدور الذي تتجلى فيه قدرتهم الإبداعية على إنتاج ثقافة فاعلة أو عمل كما يفعل النحل عندما يلتهم الزهور ويحولها إلى عسل.

وجه تشوفاك نظره إلى شايل وقال هل أجبت عن سؤالك؟

تحدث شايل: نعم، بكل تأكيد نحن لا نستحق أن نشبه بالنحل إنما نشبه حقا بالنمل الذي يأكل ولا ينتج.

ضحك البروفسور وكل من في القاعة.

ازداد إعجاب الدكتورة روعه بعقل أخيها شايل وتمنت لو أنه عضو هيئة تدريس بجانب الدكتور تشوفاك، في ضوء هذه الأمنية بدأت تنسج لأخيها عدة مواقع وتتخيله شيئاً كبيراً على مستوى العالم العربي. قطعت حركات الجمهور ووقوفهم سرحان الدكتورة روعه حيث طلب منها أخوها الذي يجلس بجانبها الخروج من القاعة والعودة إلى الشقة لأن المحاضرة انتهت. أثناء ذلك رن هاتف شايل المحمول و إذ بالآنسة رقم (5) جولي تحادثه لتخبره بأنها قد غادرت المسابقة بعده بيوم واحد وأنها

مشتاقة لمشاهدته ومعرفة سبب رقم (41)، الرقم الذي جعل المتسابقين يقضون الساعات لمعرفة سبب كره شايل له.

في عطلة الأسبوع زارت (جولي) السيد (شايل) في شقة أخته (روعه) الموجودة في مدينة كربنديل الالينوي القريبة من شيكاغو لتكملة نقاشات الرحلة ومعرفة سر رقم 41.

مباشرة قال لها شايل: إن رقم (41) هو البديل عن اسمي عندما اعتقلت ووضعت في غرفة انفرادية فكانوا يتعاملون معي من واقع رقمي كل شيء يخصني من أوراق وعلاج وضعت تحت رقم 41، أعرفتِ إذا لماذا أكره رقم 41؟!

قالت: معك حق أن تكره هذا الرقم، لكن قل لي ماذا حدث لك من تعذيب؟ وهل اعتدي عليك كما حدث للمساجين العراقيين في سجن أبو غريب؟

قال: بالنسبة لحالتي لا تستوجب القسوة لأنه لا يوجد لدي معلومات خطرة ولم أكن على اتصال بأي جماعة أو منظمة، فحالتي أخف بكثير من حالات الأشخاص المسجونين في سجن أبو غريب. إنكم تدمرون العالم بيمينكم المتطرف بدلاً من إحلال السلام والديمقراطية في العالم،

فمازلت أتذكر ما قاله وزير عدلكم أيام الرئيس (جونسن) (رامزي كلارك) عندما قال:" يوجد أكثر من 76 تورطاً للولايات المتحدة في العالم".

قالت: أعرف أن واقع السياسة الأمريكية واقع مخزٍ أخجل من ذكره، لم أقحم نفسي في السابق بمتابعة سياسة الولايات المتحدة في الخارج إلا بعد تركيزك عليها من خلال نقاشاتك في الغابة.

قال: هل أنتِ راضية عمّا حدث في سجن أبو غريب؟

قالت: بالطبع لا، إنه جنون ويؤكد كلامك السابق عندما تحدثت لنا عن اللاعقلانية والوجودية والبروتستانتية الجديدة ووضعكم العربي المتهالك.

قال: لو تحدثت عنا نحن العرب مثلا لوجدت أن عوامل الوحدة العربية موجودة مثل اللغة والدين والتاريخ ووحدة المصير إلا أن هذه العوامل أصبحت عوامل نقمة لأن المستعمر انتبه لها، وفي ضوئها قسمنا إلى أكثر من 22 دولة هذا حدث على يد المستعمر و أكملت ذلك فيما بعد الأنظمة العربية التي انتبهت إلى ذلك وعملت على نسف هذه القواسم المشتركة. أقسم لك بأني قد مللت الحديث عن السياسة والحديث عن وضعنا العربي المأساوي.

قالت: إذاً ستتحدث عن ماذا؟ و تشغل وقت فراغك؟
قال: لقد ذكرت لك سابقا أني أعمل في مكتب صحفي في العاصمة واشنطن وأتيت لزيارة أختي، أتيت للولايات المتحدة للإشراف على مكتب الصحيفة ولمقابلة الحاخام ديفيد وايس . أفكر الآن أن أرجع إلى بلدي و أن أبدأ في كتابة مذكراتي.
قالت: كيف تريد أن تكتب مذكراتك وأنت لازلت في بداية الخمسينيات؟
قال: إن مذكراتي ستكون عبارة عن نظرة استشرافية للمستقبل ومناجاة للخالق.
إني أفكر أن أسكن في البادية على الرغم من أن بادية زمن العولمة غير البادية القديمة إلا أن الطبيعة مازالت كما هي عليه في بعض المناطق ولكني سأتقيد بتصرفات البدو و أكلهم وحتى حركاتهم.
قالت: إنك تريد أن تنفصل عن العالم.
قال: هذا ما أريده و أريد أن أصفي ذهني لفترة لا تقل عن خمس سنوات.
قالت: تريد أن تكتب مذكرات مستقبلية لا ماضوية.

قال: أريد أن أعيش مع الطبيعة على الرغم من قساوتها إلا أنها أرحم بكثير من سجن أبو غريب وغيره.

قالت: سمعت أن الحكومة الأمريكية تريد هدم سجن أبو غريب.

قال: و أنا أيضا سمعت، إلا أن هدمه فكرة غير منطقية لو حول إلى مكان سياحي سيدر كثيراً على العراقيين مستقبلاً، سيتدفق عليه السياح العرب والسياح من الشعب العراقي الذين يملكون تجارب من الماضي والحاضر بشرط أن يذهب ريع السجن إلى الأشخاص الذين اعتقلوا في الزمن السابق وزمن الاحتلال الأمريكي، إنه كنز لا يقدر بثمن، إني أريد أن أزوره لو فتح للسياحة قبل أن أزور المتحف العراقي.

قالت: رجعنا للسياسة.

قال: أنت من جعلني أتكلم عن السجن عندما ذكرتِ قضية هدمه.

قالت: رأيت القواسم المشتركة بدأت تزداد بين العرب والأمريكان والعالم أجمع. إننا نعيش في زمن العولمة، عولمة العسكر وعولمة الخسائر وعولمة المصالح.

قال: ولكن لا توجد عولمة في المجال الأخلاقي إننا في الزمن العبثي. ننتظر مجيء المسيح وعلمه عند الله.

قالت: وأنا كذلك انتظر عودته ولكن قد نموت قبل مجيئه.

وبمجرد ذكر الموت و يالها من صدفة أحس شايل بوخزة شديدة في قلبه، لكنه تحامل على نفسه وصبر واستمر في الحديث مع جولي.

قالت: أريد أن أحصل على موافقتك....

قبل أن تكمل طلبها دخلت الدكتورة روعه ومعها أغراض الطبخ. إنها تعرف أن جولي ستتناول طعام الغداء.

قال: أكملي كلامك ماذا تريدين؟

قالت: أريد أن أزورك في البادية وأمكث معك شهرا كاملا.

قال: هذا يسعدني لكن بشرط أن تتقيدي بشروط الصحراء لا نريد وسائل اتصال.

قالت: إذاً انتظرني العام القادم. لكن كيف أعرف مكان وجودك؟

قال: اسألي أختي روعه. إنها ستكون الوحيدة التي تعرف عني.

قالت: شيء جميل سأتصل بها وأعرف منها كل شيء. أما الآن فسوف أقوم بمساعدة روعه في إعداد الطعام. ذهبتا إلى المطبخ لإعداد الطعام وذهب شايل إلى غرفة نومه ليريح جسمه بعد نقاشه الطويل مع جولي الذي تجاوز ساعتين.

نادت روعه بصوت مرتفع شايلاً ولم يجب.
قالت: أخي انتهى الأكل، إنه جاهز وموضوع فوق الطاولة.
كررت مناداتها وهي تقول "أبو الشول قم" ثم صرخت شايل، شايل.
سمعت جولي صراخ روعه ودخلت عليها الغرفة.
قالت: ما بك؟
روعه: أخي شايل لا يتحرك.

تناولت جولي الهاتف وكلمت خدمة911، شرحت لهم الوضع، خلال عشر دقائق وصلت سيارة الإسعاف وتم فحص شايل فكانت النتيجة أن كل شي قد انتهى. إنه جثة هامدة وصلت المأساة عند روعه ذروتها بوفاة أخيها شايل. إن أحلام شايل الكبيرة التي كان يحلم بها قد تسببت في تمزق أحد شرايين قلبه، هذا ما قاله الطبيب الذي أصدر شهادة الوفاة. أحزان أمه كاملة هزمت شرياناً صغيراً في قلب رجل يصارع زمن أمةٍ مهزومة. ساد هدوء كامل شقة روعه . وانهمرت دموع عيون حمراء... قالت جولي: إنك لا تستطيعين إرجاع أخيك بدموعك و إلا لبكيت معك أيضا. في اليوم الثاني لرحيل شايل اتصلت روعه بسفارة بلدها

لمساعدتها وتسهيل نقل جثمان شايل. أقنعت جولي روعه بالذهاب معها لمنزلها والسعي لإنهاء إجراءات نقل الجثمان.

في اليوم الرابع غادرت روعه مدينة كربنديل باتجاه نيويورك. تركت روعه روايتها التي جلبتها من بلدها وأيضا الدراسة وأوصت جولي بنقل أغراضها وأغراض شايل و وضعها عندها وتسليم مفتاح الشقة.

أقلعت الرحلة رقم 42 من مطار نيويورك باتجاه الشرق الأوسط. أحست روعه بأن الطائرة أقلعت في رحلة لا نهاية لها لأن حزنها وصل أعلى درجة فهي متعبة جداً. وبدأت تتخيل أنها تشم رائحة جثة وأن هذه الرائحة انتشرت في كل زاوية من زوايا الطائرة. ذلك الرجل الذي عاش توترا داخليا وقلقاً خارجيا و احترق من أجل خلق ثقافة هي مزيج من ثقافة بلده وثقافة المجتمع الجديد الذي قدم إليه. كان يريد أن يرسم أطراً ثقافية جديدة تقوم على العنصر الأخلاقي الذي ترعرع في شوارع المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها و أسكن فيها مجموعة من اليهود العمالقة وعنصراً آخر اسمه المجتمع المدني، مجتمع المؤسسات وسلطة القانون. كان يضحك كثيراً عندما يتذكر ذلك الزعيم العربي الذي قال

كلمته المشهورة أمام مجموعة من المثقفين كانوا يتحدثون عن المجتمع المدني. قال لهم بصوت عالٍ" نحن العسكر نروح فين" لأن ثقافته أوجدت له مفردتين فقط هما مدني وعسكري ولا يعرف مصطلح المجتمع المدني.

وصلت الطائرة إلى الشرق الأوسط ونزلت في العاصمة، و اضطرت السيدة روعه أن تستأجر سيارة إسعاف لنقل جثة أخيها ودفنه في قرية (المستردة) بجانب قبر أبيه حماد.

سألت روعه السائق: هل تعرف قرية المستردة؟

السائق: نعم.

روعه: إذهب بنا إلى عمدة القرية عله يتكفل بعملية الغسل والصلاة عليه.

شرحت روعه للعمدة تفاصيل موضوع وفاة أخيها في الولايات المتحدة و أطلعته على الأوراق الرسمية من السفارة وكذلك أوراق أخرى من المستشفى.

قرأت سعاد الزوجة السابقة والوحيدة لشايل خبر وفاة شايل في الصحيفة التي تعمل بها، حيث نعت الصحيفة مدير تحريرها السابق و أفردت له بعض الزوايا من خلال كتابها الذين يعرفونه تمام المعرفة. تزوجت السيدة

سعاد بعد مرور عدة أشهر على طلاقها من شايل بشخص يدعى (سعد الناصر) يعمل مديراً لشركة التطوير الهندسية. توفيت زوجته السابقة بحادث سير أضرب بعدها عن الزواج لمدة عامين اعتنى فيها بشؤون ابنته (مرام) التي تبلغ من العمر سنتين وثلاثة أشهر. ليس كعادتها أن ترجع السيدة سعاد من العمل مبكراً، لذلك استغرب زوجها سعد من رجوعها وشكلها الحزين.

قال: ما بك؟

قالت: شايل مات.

قال: من هو شايل؟ أنا لا أعرف أن لك أخاً اسمه شايل

قالت: زوجي السابق.

قال: هذا جنون تبكين على زوجك السابق أمامي.

قالت: إنه كان محبوبي و أنت عشيقي الآن.

قال: إنه غبي كيف يقدم على الانفصال منك. إنك بالنسبة لي جنة عدن في الأرض ولن أقارنك بأي امرأة. أنت رمز العطاء والمودة، لكن لماذا أنت مفجوعة عليه؟ احذري لا يجوز لك الانفعال و أنت حامل.

قالت: إن انفصالنا هو انفصال الناس الشرفاء الذين يحترمون بعضهم بعضاً.

قال: كيف؟

قالت: اكتشف حبي الكبير للأطفال و أنا لم أرزق منه بطفل طيلة خمس السنوات. أشفق على حالتي و أخرجني من معضلة الانتظار لأنه على يقين من أن المشكلة هو مصدرها.

قال: إنه إنسان عظيم، رحمه الله.

قالت: قررت ولكن بعد موافقتك لو كان المولود ذكراً كما أخبرتني الطبيبة أن نسميه شايل.

قال: أنا موافق من الآن.

قالت: خسرت شايل بالانفصال عنه وكسبتك أنت، وأتوقع أن ابننا شايل سيكون مثل صاحب الاسم الأول لأنه ابن لك ولي. إن ابننا سيكون محظوظا بك.

قال: و بك أنت.

قالت: أريد أن ينزرع حبه لدى من حوله كما أنزرع حب شايل في قلبي.

قال: إن حب الآخرين لأي فرد ليس بالتمني إنما هناك جينات الأب والأم، تؤثران على الشخص وكذلك قدره وحظه.

قالت: إذا رجع الموضوع للجينات أظن أنه سيكون بخير.

قال: نستطيع أن نربيه ونعوده على الحب. نضعه له مع حليبه و أكله وفي الجو الذي يتنفسه. سنحاصره من جميع الجهات الأربع، ولن يستدل على طريقه إلا من خلال بوصلة الحب التي نصنعها له من كلمات ومفردات وأفعال. نجنبه أثناء تعاملنا معه منطقة المفعول به ونسكنه منطقة الفاعل القابل للصرف والعطاء بدلاً من أن يكون ممنوعاً من الصرف ومجروراً بكسر إرادته.

(11)

حب إيه؟

مرت ثلاثة أشهر على وفاة شايل، وروعه ظلت متوهجة وشامخة بحزنها كأنها تنعي والياً صالحاً أو زعيماً عادلاً.

تقضي أغلب وقتها بين مذكرات ومقالات شايل في مكتبة منزله وتتابع قراءة صحيفة الإثنين التي كان شايل مدير تحريرها. قرأت في الصحيفة نفسها وللصحيفة مصداقية لديها خبراً مفاده أنه بات بالإمكان حسب ما يقول العلماء استخدام الأشعة المقطعية لعلاج مرض الكآبة وتعكر المزاج، فقد عثر الباحثون في مستشفى (ماكلين) في(بيلمونت) بولاية (ماساشوستس) الأمريكية بمحض المصادفة أثناء قيامهم بعمليات مسح لمرض آخر، وكانت إحدى المريضات التي كانت تعيش حالة الرعب والبؤس حتى أنها لم تكن تستطيع الرد على الأسئلة ولكن بعد أن أجريت لها عملية مسح استغرقت عشرين دقيقة بجهاز التصوير بالرنين المغناطيسي ذهلت من تبدل حالتها و أصبحت ذات مزاج رائق.

ومريضة أخرى أصبحت توزع الابتسامات يمنة ويسرة وذلك نتيجة لتأثير الحقول المغناطيسية في جهاز الرنين على النبضات الكهربائية في الدماغ. وبعد مرور شهرين على قراءة التقرير الطبي قررت روعه السفر إلى الولايات المتحدة لزيارة مستشفى ماكلين للخضوع لجهاز الرنين المغناطيسي لمعالجة حالة الاكتئاب والحزن المسيطرين على حياتها بعد وفاة شايل. لم تنته بعد سنة التفرغ التي أخذتها من أجل قراءة رواية المرأة والاطلاع على حجم الرقابة الذاتية. الروايات والدراسات التي أنجزتها موجودة في الولايات المتحدة لدى جولي صديقة شايل التي شاركتها حزنها على شايل. معها الآن وقت كافٍ للذهاب والعلاج قبل عودتها للتدريس في بداية العام الدراسي القادم.

خضعت روعه لجهاز الرنين المغناطيسي ولم يطرأ على حالتها أي تغيير إلا أنها طلبت من الطبيب بيتر إعادة العملية للمرة الثانية وسبب إصرارها هو اعتقادها القاطع واقتناعها أن أمورها الحياتية التي تفضلها لا تتحقق من المحاولة الأولى في كل صغيرة وكبيرة. سعد الدكتور بيتر بالنتائج الواضحة على محيا السيدة روعه وهذا دليل على نجاح تجربته

الجديدة التي لم يمض عليها عام واحد لذلك كانت تكلفة العملية والعلاج غير باهظة لأنها تقع ضمن التجارب التي قد تفشل.

اتصلت السيدة روعه مباشرة بعد نجاح العملية بزوجها السابق (وديع) تستفسر عن حاله وحال ابنها (أكثم).

قالت: أتذكر الساعات التي تقضيها عند الباب تنتظر خروجي لركوب الحافلة وأيضا ساعات المجيء من الجامعة.

قال: أذكر تفاصيل تلك الحالة التي مررت بها وهي تحسب لصالحي لأني من أحب ودفع الضريبة. أذكر أيضا الساعات والأيام والسنوات التي قضيناها في الولايات المتحدة. لكنك كنتِ أنانية، امرأة تأخذ ولا تعطي.

قالت: هل تريدني أن أذكرك بالكلمات التي كنت ترسلها لي مع أمك؟ أريد أن أحيي الحب النائم عندك. لقد مضى على طلاقنا ثلاث سنوات وأنت لم تتزوج بعد.

قال: لا أريد للحب النائم أن يصحو، فقد فات الأوان فرصة واحدة أخذتها ولن أتمناها ثانية ذكرني طلبك هذا بقصيدة الشاعر (عبد الوهاب محمد) التي غنتها كوكب الشرق أم كلثوم ومنها:

حب إيه اللي أنت جاي تقول عليه

أنت عارف قبلا معنى الحب إيه؟

لما تتكلم عليه

أنت مابينك وبين الحب دنيا

دنيا ماتطولها ولاحتى بخيالك

أما نفس الحب عندي حاجة ثانية

حاجة أغلى من حياتي ومن جمالك

أنت فين والحب فين

ظالمة ليه دايما معاك

ده أنت لو حبيتي يومين

كان هواك خلاك ملاك

ليه بتتجنى كده على الحب ليه

أنت عارف قبلا معنى الحب إيه

لما تتكلم عليه!

قالت: إنك تحطم معنى الحب في داخلي، لست حجرة صماء لاعاطفة لها. أنسيت حزني على أمي وعلى شايل، إنك لم تحزن ربع ذلك على فراق أمك.

قال: أمي قد ماتت وحبي منحته لها في حياتها في السنوات الثلاث الماضية كنت عند رأسها طول الوقت، أخذت إجازة من العمل وقمت على خدمتها دون أن يوجد في المنزل أي خادمة. الحب يمنح في الحياة أما بعد الموت فهناك أعمال خيرية يعملها الفرد وهو مبتسم. حبك هو حزن على أمك وأخيك. ياعزيزتي من يعرف الحب يستطيع أن يوزعه على من حوله أما ما تفعلينه فهو خارج نطاق دائرة الحب. سمّيه أي شيء تحت نطاق صلة الرحم.

قالت : إني قد تغيرت الآن، ودعت حزني وجفافي خلفي. أعاهدك أني سأكون امرأة صاحبة مبادرة على الحب وشؤونه، سأبتسم في وجهك طول الوقت، ابتساماتي الصفر سابقاً لن تراها، أملك ابتسامات بيضاء كبياض الحليب والثلج، أنت تستحق مني كل خير يا صاحب القلب الكبير.

قال: سبحان الله كيف أصبحت تملكين هذه الطيبة والابتسامة، كم بودي لو كنت أمامك أشاهدك لأصدق نفسي.

قالت: أعطني فرصة ولو ليومين كما قال شاعرك وسترى فيَّ كل خير. أقترح عليك أن تزور الولايات المتحدة لنتذكر مطعم الجامعة الذي كنا نفطر ونتغدى فيه ونذاكر فيه واجبات اللغة في السنة الأولى. أعرف أن (أكثم) في إجازة الصيف الآن ما عليك إلا أن تحجز في الطائرة وبقية الأمور أنا أتكفل بها من سكن وسيارة ومصروفات.

قال: دعيني أفكر اليوم، سأرد عليك يوم غد.

قالت: سأهديك أغنية أم كلثوم للشاعر نفسه الذي يقول مطلعها:

حكم علينا الهوى

نعشق سوا يا عين

واحنا اللي قبل الهوى

شوف كنت فين وأنا فين

حكم علينا الهوى

نعشق وندوب

صدق اللي قال الهوى

فوق الجبين مكتوب

قال: أقسم بالله هناك شيء حدث لك، أنت امرأة عاشقة وبجنون.
قالت: مع السلامة، سلم لي على ابني الغالي وقبله لي.
رمت الدكتورة روعه سنارة الحب علّها تصيد زوجها الأول وبدأت تتذكر الأيام الخوالي التي قضتها معه، إنها تفكر بعقلانية عندما أنصفته و رمت باللائمة على نفسها لأنها كانت لا ترى غير نفسها فهي الآن تنبش في دفاترها وذكرياتها القديمة منذ رحيلهم من القرية وحتى خروجها من العملية السريعة التي حدثت بدون جراحة. إنها تواقة لمعرفة أي شيء عن المقرئة فاطمة التي علمتها ألاّ تضيع الفرصة عندما تحين. أصرت من واقع قناعتها الأكيدة عدم حاجة المقرئة فاطمة لعملية كهذه لأنها تعيش في حالة استقرار مابين داخلها وعالمها الخارجي وأنها توزع الابتسامات خلقة دون تكلّف. أما البقية من الشعب العربي فهم بحاجة إلى جهاز الرنين المغناطيسي فهي ترى أن الشعب العربي أحوج الشعوب إلى إجراء عمليات كهذه قد تكون سهلة جداً في السنوات القادمة لو تمت من خلال أقمار اصطناعية توجه رنينها المغناطيسي إلى مدن عربية كاملة وقد يكون هذا حقيقة في عام 2100م عندما يبتسم الشعب كاملا وتبتسم معه الدولة وتهمش ثقافة الموت المسيطرة على

فئات متعددة في أصقاع العالم ويصبح أصحابها أكثر ابتساماً وتفاؤلاً وعدلاً. وقد تؤثر أجزاء من الحزم الإشعاعية على شارون وحكومته فيوقفوا قتل الشعب الفلسطيني الذي يستغيث بكل شرفاء العالم ولم يغيثوه، علّ هذه الحزم المغناطيسية تفعل فعلتها وتؤثر على كل شخص في المنطقة يحمل نوايا إجرامية وتهميشاً للطرف الآخر. ويعود تطبيق مفهوم العدل مع من"تحب ومن لا تحب" لقد سمعت هذه المقولة من لسان (أسامة بن لادن) في خطابه الذي ألقاه بعد تفجيرات (مدريد) عام 2004م ووقفت مستغربة في حينها من ذكر هذه المقولة العظيمة التي لا يطبقها الشخص المستشهد بها وهو المتهم الأول بتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر وتفجيرات أخرى في بقية بلدان العالم وراح ضحيتها أشخاص ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. إذاً مسألة العدل مسألة مطاطة كل يفسرها على هواه. الدولة الصغيرة تفسرها وتفصلها على حسب مقاييسها وفي الدولة القوية مقياس العدل جاهز من وجهة نظر فئة صغيرة لا شعب بأكمله ورسالة الأديان السماوية ضائعة. إن هذا الرنين المغناطيسي قد يعمل على تعديل التكوين النفسي والذهني للإنسان العربي المتخلف الذي كان خارج نطاق التنمية ويملك نفسية مقهورة لا

تساعده على الإحساس بقيمة الحياة الإنسانية. فالرنين المغناطيسي ينزع الخوف من المواطن العربي من إرهاب الدولة و إرهاب الأصوليين.

ذهبت الدكتورة روعه إلى المركز الإسلامي في المدينة التي تنتظر فيها قدوم زوجها للحصول على معلومات مبدئية عن الشخص المسؤول عن أذونات الأنكحة، وهذه أول زيارة لها لمركز إسلامي لكنها تفاجأت بوجود مشادة كلامية أمام عينيها بين مدير المركز الإسلامي السيد (مختار أحمد) وبين شخص آخر زنجي أسود يدعى مالكاً. نسيت الدكتورة روعه موضوعها وبدأت تصغي للمشادة.

مالك: إنكم تعودون بنا إلى فكرة الثأر في الجاهلية، أنتم تخدمون مصالح أعداء الإسلام بطريقة لا تقصدونها إلا أن النتيجة واحدة، إنكم تجهلون الدعوة الصحيحة للإسلام والصبر على الأذى، لم تستفيدوا من دروس الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة والصبر، إنكم أتيتم من دول مليئة بالمشاكل والتخلف و صبغتم مساجدنا في الولايات المتحدة و أوروبا بصبغتكم حتى لغة أهل البلد الذي تقطنونه لا تتقنونها إنما تحملون في جنباتكم العنف والقسوة إن ماتنتقدون به حكوماتكم العربية والمسلمة من استخدام أساليب قمعية، تستخدمون الأساليب نفسها مع من

يرتاد مراكزكم الدينية. دعونا نحن ندير أنفسنا بأنفسنا فجزاكم الله ألف خير. أحمر وجه السيد (مختار) وزمجر وسأل: من أنت كي تقول هذا الافتراء؟

مالك: أنا أستاذ التاريخ وأفهم الدين أكثر من فهمك السطحي له و ابن هذا البلد.

تذكرت السيدة روعه كلام مشرفها الدكتور تشوفاك عن الثقافة العربية الشبيهة بثقافة النمل القائمة على الأكل والإنجاب وعدم تشغيل العقل.

خاطبت الدكتورة روعه نفسها وانسحبت قائلة: "إذا كان هذا أولها ينعاف تاليها، إنهم يحتاجون إلى جهاز الرنين المغناطيسي لزرع الابتسامة على شفاههم".

(12)

قاتلتي

فرحت روعه كثيراً بعد موافقة وديع وابنها على زيارتها في الولايات المتحدة،صارت المدة مربوطة بسرعة استخراج فيزة السفر، ويحتاج هذا على الأقل أسبوعين إذا تمت الموافقة. في ضوء ذلك قررت القيام بزيارة لصديقتها جولي نوعاً من العرفان ورد الجميل على تعاطفها معها إبان وفاة شايل و اتصالاتها المستمرة بها. بدأت روعه تقتنع بأن الحب غير مربوط بمكان أو جنسية أو ديانة إنما هو مجموعة من الأحاسيس المسالمة والطيبة المسنودة بروح العطاء والمبادرة. وصلت روعه إلى شقة جولي بعد محادثة هاتفية سابقة للتأكد من وجودها في الشقة وتجهيزها أغراض روعه وأغراضاً أخرى خاصة بالسيد شايل، كان من بين أغراضه مقالة طُلبت منه عن تجربته الصحفية الطويلة لإحدى الصحف العربية. كانت روعه متماسكة وهادئة وهي تقرأ المقالة.

افتتح السيد شايل مقالته ببيت من قصيدة للشاعر العربي الراحل نزار قباني، ومطلعها:

قاتلتي ترقص حافية القدمين

في مدخل شرياني

بعد إعجابه الشديد بالقصيدة، نتيجة لوجودها على شريط كاسيت للفنان كاظم الساهر قد اشتراه شايل من أحد المحلات العربية لبيع الأغاني في مدينة دترويت في ولاية متشغن التي تسكنها جالية عربية كبيرة وفيها عراقيون كثر. اختزل شايل قضيته بشكل عام في هذا البيت الرائع لساحر الكلمة الشاعر نزار. في هذه المقالة القصيرة أراد شايل أن يكشف نفسه أمام مرآة نفسه و أمام الآخرين بدون خوف، وفي الحقيقة هو أراد أن يكشف معضلة كان يعاني منها.

يقول: إني وقعت تحت محرقة الجرأة التي وقع ويقع فيها عديدٌ من أبناء جلدتي العرب، ويحصدون أنواعاً مختلفة من العذاب الجسمي والنفسي إلا أني قد جمعت مع الجرأة عنصراً آخر يدعى الخوف، أتذوقه مع أطباق الطعام في الصباح آكل منه مع وجبة الإفطار وفي الظهيرة مع

وجبة الغداء وفي المساء مع وجبة العشاء وحتى مع المشروبات الغازية والماء.

جرأتي تحطم أحيانا الخوف بداخلي وأحيانا أخرى تتحطم الجرأة على قواعد الخوف فلا تبحر السفينة وتبقى طافية على سطح الماء إلا أني لا أتركها تغرق في الوحل فتبدأ الجرأة في زعزعة الخوف ويرشح عن ذلك أشعة الحرية، إلا أن الخوف يأتي مسرعاً لحجب الأشعة ولكن بعد فوات الأوان. وأسكن بكل جوارحي في المنطقة القاتلة ويبدأ قلبي ينزف ألماً وأحترق نفسياً. تعايشت مع هذه المرحلة القاتلة أثناء تعاملي مع من حولي، جماهير كثيرة تطلب من الإعلام العربي أن يكون أكثر جرأة من ماضيه وحاضره إلا أن هذه الجماهير حتى بمثقفيها لا تمارس في دواخلها هذا المنهج الحر الذي نفتقده في مؤسساتنا التربوية وعجز ثقافتنا عن تنمية مايسمى بثقافة الاختلاف. فهذه المعادلة كلفتني كثيراً وجعلت لي مواقف صعبة مع مبدأ التصالح مع العيوب وكنت أرى أن من الممكن جعل كل شيء يتسم بالكمال. كنت أرفض أن ارتبط مع أي فكر لأني مؤمن تمام الإيمان بأن الحقيقة لا ترتبط بفكر معين. إني أعدّ نفسي طيراً طليقاً يتنقل من شجرة إلى أخرى. أما إذا كنت مرتبطاً بجهة أو

بفكر ما سأجد نفسي كالطير الذي يطير لكنه مربوط بحبل، فحريتي تصبح محدودة بطول الحبل. وتكون رسالة الإنسان الحر ناقصة لا تحمل الطابع الإنساني و ذات طابع مؤدلج مسيَّس.

شكّل العراق نقطة صعبة ومظلمة في حياة شايل كان من أشد الذين يكرهون دكتاتورية الرئيس العراقي فهو يغضب كثيراً من الإعلاميين والمثقفين العرب الذين لمّعوا شخصية ذلك المستبد، فيدخل في مشادات معهم منذ تولي الرئيس العراقي زمام الحكم في العراق فقد قال في حينها إن الموت يعجز عن قتل هذا الكابوس الذي جثم على قلوب العراقيين.

إن الألم الذي يوجد في داخل أي فرد عراقي، أقل بكثير وهذا ليس مبالغة في ما يحس به شايل، إنما سبب تفوقه عليهم أنه يحس بألم كل عراقي عانى من ظلم الدكتاتور ومن هنا تفوق هو على العراقيين، لأنه حمل في داخله أحزانهم جميعاً. أي أن حزنه غدا أحزانهم جميعا تتحرك على الأرض. يصرخ كثيراً في وجه من كانوا يدافعون عن الدكتاتور، حيث دافع عنه أغلب الكتاب والمثقفين العرب دون أن يدركوا ويحسوا ويتجرعوا مرارة الظلم والقمع. أدخلهم في حربين لا صالح لهم فيهما،

فقد فقدوا جراء ذلك أعداداً كبيرةً من أبنائهم وشيوخهم، حالة مأساوية أرهقت شعباً لا حول له ولا قوة. وقضت على مدخرات جيل بأكمله.

على الرغم من كراهية شايل للرئيس العراقي المعزول إلا أنه لا يؤيد إعدامه والحكم عليه بالموت إنما يريد إدانته بما فعل و تأجيل إطلاق سراحه حتى تتحرر العراق من أي قوة ووصاية أجنبية فداءً لحريتهم وتخلصهم من التسلط الذي دام عدة عقود يطلق سراحه ويقام احتفال كبير لتبيان أن المرحلة الجديدة مرحلة تحرر من العبودية. كان يتخيل هذه الصورة الحالمة لقناعته الكاملة بحاجة العرب للحرية ورفضه للظلم والحرمان. إن الحرية أكبر بكثير من قضية القصاص، إنها السعي من أجل الكمال، كان كل شيء مُرّاً في فم العراقي الشريف خلال فترة الرئيس العراقي ورجالاته.

فالعراق يعيش في دمه منذ سفر بطاح والد مذود، والجثة التي أكل نصفها مذود وهو في طريقه إلى العراق، و أغنية المطرب العراقي كاظم الساهر التي تفوح حزناً وتلد ألماً. و لشايل كثير من مواطئ الأقدام مع المصائب التي تحل بالمواطن العربي فقد قفز فوق خصوصياته ودخل المنطقة الأكثر عمومية وشمولية، فعالمه العام سيطر وبشكل

كبير على قضاياه الخاصة مثل مشكلته مع أمه التي أثرت عليه في حينها وتجاوزها من خلال سفره إلى واشنطن. امتنع شايل عن الطعام لمدة أربعة أيام متتالية عندما كانت إسرائيل تسحق مخيم (جنين) في الفترة نفسها التي قام بها الحاخام (ديفيد) بالمظاهرة في شوارع (نيويورك).

كان هناك مشروع أراد أن ينجزه قبل أن يموت وبدأت خطواته الفعلية لعمل ذلك. كان يتابع في إحدى القنوات الفضائية فيلما وثائقياً عن حياة الزعيم والمناضل الأفريقي "نلسن مانديلا" فهو من المعجبين بشخصية هذا الرجل العظيم، إذ اعتبره رجل القرن العشرين. ليس بيد شايل أي شيء يمكن أن يفعله من أجل هذا الإنسان العملاق حتى التعاطف معه أصبح من الماضي لأن مانديلا قد تحقق له ما كان يسعى من أجله فمربط الفرس الآن عند شايل أن يتحقق للسجناء الفلسطينيين ما تحقق لمانديلا وشعبه.فهناك سبعة آلاف وخمسمئة فلسطيني في سجون إسرائيل منهم حوالي خمسمئة طفل، يريد أن يفعل شيئاً من أجلهم. استهوته فكرة جميلة لتحريك الشعب البريطاني كما حدث للزعيم الأفريقي مانديلا وهو في سجنه عام 1988م عندما قامت حفلة غنائية في استاد ويمبلدون الرياضي في مدينة لندن. إن فكرة شايل هي إقامة حفل غنائي في استاد

رياضي آخر في لندن لأن استاد ويمبلدون قد أزيل لعمل استاد أفضل منه. تبادر لذهن شايل أن يحرك الرجل الساكن والمبتعد عن ساحة الغناء و إرجاعه إلى ماضيه ولو ليلة واحدة. اتصل شايل بزميل له في إحدى الصحف العربية في لندن و أخذ منه هاتف زير النساء في السبعينات.

في المساء أمسك شايل بالهاتف.

شايل: ألو ممكن أكلم الشيخ (يوسف إسلام)؟(كات ستيفنس)

يوسف: تفضل معك(يوسف) بارك الله فيك.

شايل: أنا شايل حماد أعمل في مكتب صحيفة الإثنين في واشنطن و أريد التحدث إليك عن موضوع مهم.

يوسف: إذا كان الموضوع إعلامي مجرد لقاء صحفي فاسمح لي أنا اعتذر عن أي لقاء صحفي.

شايل: معك حق فاللقاء الصحفي لا يسمن ولا يغني من جوع ولن يحل القضية الفلسطينية. يا عزيزي إني أحمل في جعبتي عملاً من أجل السجناء الفلسطينيين.

يوسف: إنهم يستحقون منا أن نفعل لهم أي شيء من أجلهم.

شايل: جميل أن تقول أي شيء.

يوسف: كل شيء عدا ما حرم الله.

شايل: أريدك أن تحيي حفلة غنائية ولكن ليست ماجنة، حفلة من أجل السجناء الفلسطينيين كما تم فعله من أجل نلسن مانديلا قبل الإفراج عنه. إنك غنيت من أجل أطفال البوسنة. إن عملك هذا لو تم بمساعدة مطربين آخرين يتفاعلون مع القضية الفلسطينية من شتى بقاع العالم وهم كثر سينالك أجر عظيم. رجائي الحار أن توافق، أريدك أن تغني من أقصى أعماقك من أجل حرية شعب مسجون بأكمله. إن قمت بذلك سيكون أفضل بكثير مما قامت به هيئة الأمم أو مجلس الأمن والدول العربية مجتمعة.

يوسف: إن الغناء مكروه ولا أريد أن أرجع إلى ما كنت أفعل سابقاً.

شايل: أعرف ما كنت تقوم به سابقاً وسمعت أغلب أغانيك، أغانيك كانت تثير الشهوة. أريدك أن تغني من أجل حرية شعب مسلوبة أريد لأغانيك أن تحيي ضمائر الشعب البريطاني الذي تسبب قادته في خلق هذه المحرقة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني.

يوسف: هل أنت فلسطيني؟

شايل: لا، أنا عربي من دولة أخرى غير فلسطين لو كنت مكانك لغنيت لجميع الشعوب المحتلة. أغني في المساء في أماكن مفتوحة غير البارات وفي الصباح أطلب المغفرة و أتوب إلى الله. إن الغناء إذا كانت كلماته نظيفة وخالية من الفحش وكانت النية سليمة فإن الله غفور رحيم.

يوسف: إني مؤمن بعدالة القضية الفلسطينية ولا يوجد عندي أدنى شك في ذلك.

شايل: هل اعتبرك موافقاً من الآن؟

يوسف: لا تستعجل الأمر، أعطني مهلة أسبوع في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم سيكون بيننا اتصال.

شايل: سأتصل بك الاثنين إن شاء الله. وفعلا رقصت قاتلته (الحرية) حافية القدمين في مدخل شريانه، ورحل قبل أن يعانقها.

(13)

<u>كتاب الحب</u>

أصبحت روعه امرأة دافئة تفتش عن الحب الحقيقي وبدأت تبحث عن الكتب التي تطرقت لموضوع الحب تريد أن تفاجئ زوجها السابق إذا أتى إليها بكم هائل من المعلومات والأبحاث عن هذه المعضلة التي تسمى الحب. ذكر البروفسور الأمريكي(ليو بوسكاليا) الذي يرى أن الإنسان لا يقع في الحب ولا يسقط خارجه بل يتعلمه كما يتعلم أي درس أكاديمي آخر كما وضح ذلك من خلال الفصل الدراسي الكامل عن الحب في جامعة جنوب كاليفورنيا. أشياء كثيرة تفتحت للدكتورة روعه بعد اطلاعها على كتاب الدكتور ليو بوسكاليا وتجربته في جامعة جنوب كاليفورنيا. استأنفت الدكتورة روعه التحضير لمفردات مادة" أنت الحب" لتعرضها على البروفسور(تشوفاك) كي تقوم بتدريسها في جامعتها التي

حصلت من خلالها على شهادة الدكتوراة. يقيناً أن هذه الفكرة لو عرضت على شايل لرحب وشجع روعه على الاهتمام بها. هذا ما فكرت به روعه.

ناقش البروفسور تشوفاك وزملاؤه في القسم فكرة الدكتورة روعه على أن تكون مادة ضمن الساعات الحرة التي لا تلزم الطالب بتسجيلها إنما تترك له حرية الاختيار حسب رغبة الطالب نفسه. وافق الجميع على أهمية المادة ولكن ربطوا موافقتهم النهائية بالإطلاع على مفردات المادة أي المحتوى الكيفي والكمي للمقرر. شهران من العمل الدؤوب على تجهيز محتويات المقرر من الساعة الثامنة صباحاً وحتى التاسعة مساءً تقضيها يومياً في مكتبة الجامعة وتوصلت إلى ما يلي: الجانب النظري موقف الأديان من الحب، السياسيون والحب، الفنانون والحب، الرياضون والحب، المثقفون والحب، المفكرون والحب، الحب والحرية. إنها عناوين كبيرة جداً لكنها أخذت عينات وشواهد لشخصيات عالمية كأمثلة حية تبين كيف تعامل الآخرون وفقاً لتخصصاتهم مع هذا المفهوم الذي تبنى عليه أشياء كثيرة في حياة الإنسان. أما الجانب العملي فهناك مفردات خاصة به ابتداء من خضوع الطلبة لتجربة الرنين المغناطيسي

وقياس مدى تأثير ذلك على التعامل بين الطلبة أنفسهم. إنها تنقل لهم العملية التي خضعت لها من دون جراحة أو حدوث مضاعفات.

حاولت روعه أن تتجاهل متغير الجنس في قضية الحب لأنها ترى ذلك يقع ضمن مسؤولية الغريزة الجنسية التي تتأثر بالنواحي الفسيولوجية البحتة. وتجسيداً لحقيقة أهمية هذه المادة ارتأت الدكتورة روعه أن تبدأ مادتها الدراسية بالتركيز على فرضيتها التي تقوم على الترابط القوي بين مفهوم الحب والحرية. فكلما زادت مساحة الحرية كلما رسخ الحب. فهي ترى أن الحب والحرية وجهان لعملة واحدة، تؤثر ملامح كل وجه في تشكيل ملامح الوجه الآخر، فالحب هو الغذاء الرئيس للحرية كالزهر بالنسبة للنحل. والعملية أيضا عكسية فكلما كان الحب يتغذى على رحيق الحرية تثبت جذوره في أقصى أعماق العدالة الإنسانية النسبية وتظهر ملامح المجتمع المدني بكل مؤسساته المختلفة. فهناك قواسم مشتركة بين الحب والحرية مثل الصدق والمصلحة العامة واحترام الرأي والرأي الآخر. وافق القسم على أن تقوم الدكتورة روعه بتدريس هذه المادة إلا أن المقابل المادي لا يكفي للدكتورة روعه على العيش في الولايات المتحدة، وفي ضوء ذلك قررت طلب التقاعد المبكر

من جامعتها العربية وفعلاً تم لها ما أرادت تقديراً لظروفها الصحية السابقة. ولكن يبقى السؤال الأهم كيف تقنع وديعاً بالرجوع إليها؟ وهي تخطط لأن تستقر في الولايات المتحدة بجانب أبحاث وكتب الحب.

اتصلت الدكتورة روعه بوديع بعد أن أرسلت له مفردات المادة على البريد الالكتروني.

قالت: انتظرك ولم تأتِ لأنك غير متأكد من كبر مساحة هامش الحب في قلبي تجاهك.

قال: فعلاً هذا ما حدث ولذلك لم آتِ إليك. أمّا بعد خطوتك الجريئة والرائعة بتدريس مادة الحب فقد قطعت الشك باليقين وأعلن بنفس راضية أنك أنت محبوبتي، لقد طلبت إجازة من العمل لمدة عام سأصطحب أكثم ونأتي إليك. لكن هل تسمحين لي أن أسجل المادة وأكون ضمن الطلبة؟

قالت: أنت مثال حي في تجربة الحب ومن قبلك كان شايل رحمة الله عليه. آمل أن يأتي اليوم الذي أرى فيه هذه المادة كمقرر في جميع مدارسنا العربية فنحن أحوج الناس إليها. هل تصدق لو قلت لك حتى

مدارس محو الأمية تحتاج إلى هذه المادة وحتى القمم العربية تحتاج إليها وصدق نزار عندما قال:

الحب في الأرض بعضُ من تصورنا

لو لم نجده عليها لاخترعناه

سامحه الله اختزل الحب في الجنس .

قاطعها وديع قائلا: لا عليك، إنك أكثر شمولية ودراية بمفهوم الحب وأشكرك على المقدمة التي زاوجتِ فيها بين مفهوم الحب والحرية.

قالت: ما زلت أذكر كلماتك القاسية والقوية في نفس الوقت التي وجهتها لي عندما استشهدت بكلمات الشاعر عبد الوهاب محمد "حب أيه اللي أنت جاي تقول عليه ، أنت عارف قبلا معنى الحب أيه"

حقيقة انتابني شيء من الحزن جعلني أغطس في عمق الحب وأحاول أن أسبح في جوفه كما فعل من قبل أخي شايل. كان يسبح في داخله ويجدف بمجاديف الحرية وكثيراً ما كان يقول لي أني لم أتوصل بعد إلى امتلاك الحقيقة ولن يتوصل إليها أحد وفي ضوء ذلك كان يحترم جميع الملل والطوائف والأعراف، كان يختلف مع طرح الشاعر العربي(أحمد مطر)

الذي يقول فيه لأبيه:" في أي قطر عربي إن أعلن الذكي عن ذكائه فهو غبي!"

يفهم شايل الدين على أنه درجات أعلاها درجة الورع التي يكون فيها الفرد بمصاف الأنبياء والرسل وأقلها ما يفعله هو أي الابتعاد عن ارتكاب المعاصي الكبيرة ، إنه رجل عربي يزرع في مجمل مفرداته مفهوم الحرية، مقتنع تمام الاقتناع أن القومية العربية فاشلة دون أن ترضع من حلمة ثدي الحرية، فهي لا تساوي شيئا إنما تراوح مكانها يتاجر بها فئة تحترف مهنة الكذب والدجل والضحك على الذقون كما حدث في ظل عصرها الذهبي وعلى النقيض من ذلك هناك من ساوم على الاستقرار واعتبروا الحرية هادمة لحياتهم واستقرارهم وأنها من الأشياء الكمالية التي لا تقارن مع المأكل والمشرب والمسكن وإن الجماهير متى ما طالبت بالحرية فقل عليها السلام. كتب ذات يوم عن إقامة جائزة عالمية للسلام على غرار جائزة نوبل تحت اسم جائزة (الحسين) للسلام يهدف من ذلك إلى توجيه الحب الكبير لدى محبي الإمام الحسين إلى شيء يتسم بالرقي والنبل بدلاً من تعذيب النفس وجلد الجسد. إنها فكرة رائعة جسدتها أنامله الطاهرة ترتفع إلى مستوى متقدم

في حب ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام وابن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال: إنها فكرة رائعة تقديم جائزة عالمية للسلام تحت مسمى (الحسين) للسلام.

قالت: أعدك أني سأفعل الموضوع وسأخصص فصلا كاملا في كتابي القادم "الحب" عن جائزة الحسين وسأرشح أسماء مقربة إلى قلب شايل للحصول على جائزة الحسين ومنها:

1-الحاخام ديفيد وايس

2-المفكر نعوم تشومسكي

3-الروائي صنع الله ابراهيم

4-المناضل نلسين مانديلا

5-الرئيس سوار الذهب

6-المفكر محمد أركون

7-الشيخ أحمد الكبيسي

8- السياسي جورج جلاوي

9-العلامة محمد حسين فضل الله

10- ....

11- ....

12- ....

13- ....

100- ....

قال: وقفت عند تسعة أسماء وتركت البقية لماذا؟

قالت: أترك ذلك للقراء في الوطن العربي يكتبون أسماء من يرشحون.

قال: لماذا لم ترشحي أخاك المرحوم شايلاً لنيلها؟

قالت: تركت الفراغ للآخرين ليكتبوا أسماء الأشخاص الذين على شاكلة شايل وهم أولا وأخيرا صورة من شايل في أماكن متعددة تحاول أن تحارب التجارب القاسية.

كان شايل يريد أن يسوق لمشروع إسلامي حضاري يقوم على الحرية والديمقراطية فرحل قبل أن يرى مشروعه فهل يرحل الآخرون قبل تمام هذا المشروع؟

إن المتابع لحياة شايل يجد أنها تقوم على قدر ناقص لم يكتمل، فطموحاته المتعددة لم يتحقق شيء منها، فحينما يريد قطاف ما يصبو إليه يتوقف

زمن القدر وينتقل إلى مجال قدر آخر لم يكن بباله ويستمر معه يصارع على أمل تحقيقه وكان القاسم المشترك في كل أطروحاته (متغير الحرية).

قال: كيف حال صديقتك جولي؟

قالت: أشكرك لقد ذكرتني. إني أريد إضافة اسمها في كتاب الحب.

تصبح على خير على أمل أن نكمل الحديث يوم غدٍ.

أرجو أن تسامحني عن كل خطأ ارتكبته في حقك فما علي إلا الاستغفار لله حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم.."

اللهم اغفر لي يا رب.

استسلمت روعه للنوم وإذ بالمقرئة فاطمة تقف أمامها.

روعه: ما شاء الله أنت تقفين على قدميك وتبدين رائعة الجمال،لقد تغيرتِ كثيراً قولي ماذا فعلتِ؟

المقرئة: نحن لا نعمل عمليات تجميلية، دخلت عالماً آخر غير عالمكم. أقرب إلى الثبات من عالمكم المتغير.

روعه: أعرف أن عالمنا أو حياتنا هي عبارة عن مسيرة طويلة لأقدار مستمرة لا تقف عند نقطة أو زمن معين. لكن ما الذي تحملينه في يدك؟

المقرئة: أحمل كتاباً يختلف عن كتبكم المألوفة لا توجد به كلمات ولا جمل ولا رسومات.

روعه: إذا ماذا به؟

المقرئة: أشياء عديدة لن تفهميها فوق قدراتك وفوق كل ما تتخيلينه.

روعه: هل قابلتي أخي شايل؟

المقرئة: هل هو عندنا؟

روعه: نعم رحل إليكم قبل عدة أشهر.

المقرئة: سأبحث عنه في أرجاء عالمنا، إني مشتاقة لرؤيته، أريد أن أعرفه إلى الشخص الذي سأرتبط به.

روعه: تريدينه أن يكون ولي أمرك؟

المقرئة: في عالمنا لا يوجد ولي أمر، توجد لدينا حرية مطلقة. حياتكم تسير فوق مسيرة قدركم.

المقرئة: أرجوكِ لا تقولي كلمة حياتكم ليس لدينا مرحلة أخرى كي نسمي هذه حياتنا والأخرى مماتنا، فمسيرة الأقدار توقفت عندنا وأنتم فقط من يسير في مسيرة القدر.

روعه: أريد أن أسألك هل كنتِ راضية عن حياتك الأولى؟

المقرئة: أكذب عليك لو قلت لك راضية بل كنت صابرة ومستسلمة لقضاء الله لكن اخبريني عن أوضاعكم؟

روعه: بالأمس أعلن الرئيس بوش الابن بوجود نظرية جديدة تلغي نظرية النشوء والارتقاء.

المقرئة: نحن نعيش خارج النظريات.

روعه: اشتقت إليك كثيراً فقط انتظر أن انتهي من تأليف كتابي الموسوم بـ "الحب".

المقرئة: إني عاتبة عليك، لماذا لم تدرجي اسمي ضمن القائمة؟

مع لحظة العتاب انقطع حبل التواصل بينهما وصحت روعه من نومها وكأنها أتت من عالم آخر.

انــتـــــــهـــت